

١٩٥٢

فرانسوا موريياك والده



ترجمة : محمد عبد الحميد عنبر
عبد الحميد صابرين

والدة



مكتبة نوبل

Author :François Mauriac

Title : Genitrix

Translator: Mouhamed Abd

Al Hameed ambar and Abd

Al Mageed Abdeen

Al- Mada P. C.

First Edition 1947

Special Edition 2001

Copyright © Al-Mada

اسم المؤلف : فرانسوا مورياك

عنوان الكتاب : والدة

ترجمة : محمد عبد الحميد عنبر

وعبد المجيد عابدين

الناشر : المدي

الطبعة الأولى : عام ١٩٤٧

طبعة خاصة : عام ٢٠٠١

الحقوق محفوظة

ترجم عن الفرنسية

دار  للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٢٢٢٢٧٥ - ٢٢٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٢٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A, Cyprus

Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .

Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

E - mail : al - madahouse @ net.sy ، البريد الالكتروني

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

١٩٥٢

مكتبة نوبل

فرانسوا موريyak والالة

ترجمة

محمد عبد الحميد عنبر

وعبد المجيد عابدين



الى أخى
الدكتور بيير مورياك
الأستاذ فى كلية الطب ببوردو
أكلُ أمر هؤلاء المرضى
دليل الحبة والأعجاب
ف.م

- إنها نائمة.

- بل هي تتصنع النوم. هيا بنا.

هكذا كان زوج ماتيلد كازيناف وحمايتها يتهامسان حيال سريرها، وهي تراقب، من خلال أهدابها، ظلّهما الضخمين المختلطين على الحائط. وسارا على أطراف أصابعهما وأطراف أرجلهما تفرقع، حتى أدركا الباب. وسمعت ماتيلد خطاهما على السلم الرنان، وسمعت صوتين: أحدهما حاد والآخر مبجوح. وملأ هذان الصوتان ممر الدور الأول الطويل. والآن يشقّان مسرعين ساحة الدهليز، القارسة البرد، التي تفصل جناح ماتيلد عن عُرفَتَي الأم وابنها المتلاصقتين. سمعت من بعيد إغلاق الباب فتنفست الصعداء ارتياحاً، وفتحت عينيها. فوق سريرها سهم من الخشب يسند ستارة من نسيج القطن الأبيض تحيط بالسريّر المصنوع من خشب المغنة. ومصباح النوم يضيء بعض الباقات الزرقاء المنقوشة على الحائط. وعلى المائدة الصغيرة كوب من الماء، أخضر، مخطط بالذهب ارتج من حركة مرور القاطرة، إذ كانت المحطة مجاورة. وانتهت حركة المرور فأنصتت ماتيلد الى تهامس تلك الليلة من هذا الربع الآفل (كما ينصت المسافرون، حين يتوقف سير القطار في وسط

الريف، الى صرير الصراصير من حقل مجهول). مر قطار الساعة العاشرة مساء فارتج المنزل العتيق بأجمعه. واهتزت أرض المنزل، وانفتح باب مخزن في الدور الأعلى، أو باب غرفة مهجورة. ثم هدر القطار فوق الجسر الحديدي الذي يمتد على نهر الجارون. وتسلت ماتيلد بتتبع هدير القطار، ثم لم يلبث أن غلب على الهدير حفيف الأغصان.

وغلبيها النعاس ثم تنبهت؛ فقد كان سريرها يرتجف من جديد، سريرها فحسب لابقية المنزل، وليس من حركة مرور في المحطة الهامدة. ومرت بضع ثوان أخرى قبل أن تدرك ماتيلد أن رعشة تتاب جسمها فتتهز سريرها وأن أسنانها تصطك بالرغم من أن حرارتها مرتفعة. ولم تستطع أن تمد يدها الى مقياس الحرارة الملقى على وسادتها.

وانقطعت رعشتها، ولكن ناراً مازالت تتأجج في أحشائها تتصاعد منها كقذائف البركان؛ فقد كانت تحترق. ونفخ هواء الليل في الستائر، فصلاً الغرفة بأريج الزنبق مع دخان فحم يحترق، وتذكرت ماتيلد أول أمس، حين كانت غارقة في دماء إسقاط جهيضا ساعة أن خافت على جسمها من القابلة وهي تعمل يداً لاتعرف الملل ولاتوقن بالنجاح.

- لا بد أن حرارتي فوق الأربعين... ومع ذلك فهم لا يريدون أن

يسهر معي أحد...

وأخذت عينها الغاربتان تحديقان في السقف، في هالة النور المتأرجحة، قابضة بيدها على ثدييها الصغيرين وهي تصيح بصوت قوي:

- ماري! ماري دي لادوس! ماري!

ولكن كيف تسمعهما الخادمة ماري دي لادوس (نسبة الى قرية

لادوس التي نشأت فيها) وهي تنام في مطمورة المنزل؟ ماهذه الكتلة السوداء القريبة من النافذة كأنها وحش مستقل قد ارتوى شعباً أو قعد يتربص؟ ولكن ماتيلد لم تلبث أن عرفت أنها المنصة التي أقامتها حمايتها من زمن بعيد في كل غرفة، حتى تتمكن أن نقفو أثر ابنها في غدوه ورواحه، حين يلف في دوران الشمال، أو يذرع ممر الجنوب، أو يعود من الباب الشرقي. ذكرت ماتيلد أنها رأت، في أحد أيام خطبتها، تلك الحماة الضخمة تقف على إحدى هذه المنصات متفوضة غاضبة تدبب برجليها وتصيح:

– لن تمتلكي ولدي؛ ولن تستولي عليه أبداً!

ثم عادت حرارة ماتيلد تأخذ في الهبوط. وقد صرفها إعياءها الشديد وانهايار جسمها عن أن تحاول تحريك أصبع من أصابعها، ولو لتبعد عن جسمها المبلل قميصها الملتصق. وسمعت في هذه الساعة صرير الباب العام؛ فقد كان من عادة السيدة كازيناف وابنها أن يجوسا، وفي يدهما المصباح، خلال الحديقة، ينشدان الأمكنة الخفية المبنية قريباً من منزل معهما مفتاحه، يملكه أحد الفلاحين. وممر بخلد ماتيلد المنظر اليومي: أحدهما ينتظر الآخر، ثم لا يكفان عن الكلام في طريقهما إلى الباب، وقد نقش عليه رسم للقلب. وأحست من جديد بالبرد، فاصطكت أسنانها وارتجفت سريرها وبحثت بيدها عن شريط الجرس – وتلك طريقة عتيقة كانت قليلة الاستعمال – فشدهته وسمعت صوت احتكاك الخيط بالطَّنْف، ولم تسمع له رنيناً في المنزل المخيم عليه الظلام. وعادت ماتيلد تتقد، وهراً الكلب تحت السلم العام ثم انطلق نباحه الصاخب؛ إذ رأى شخصاً يسير في الطريق الضيقة التي تفصل الحديقة عن المحطة.

وحدثت نفسها قائلة: «حتى البارحة كنت عرضة للخوف!» ذلك أن ماتيلد لم تنس ليالى الرعب الجنونية التي قضتها في هذا المنزل الفسيح، المرتجف دائماً، الذي لم يكن حتى لنوافذه ضلف تفيها! كم من مرة انتفضت في فراستها صائحة: «مَنْ هنا؟» ولكنها الآن لم تعد تشعر بالخوف، كما لو أن هذه النار المتقدة قد وقفت حائلاً بينها وبين أن يصل إليها أحد. وما طفق الكلب يهر بالرغم من انقطاع صوت الأقدام. وسمعت ماتيلد صوت ماري دي لادوس: «ماخطبك يا پليو؟» وسمعت پليو وهو يبصبص بذنبه جذلاً يضرب حجر السلم العام، وماري دي لادوس تهدئه بلهجتها الريفية: «بس! بس!» وبدأ اللهب يغادر من جديد هذا الجسم المحترق. واستحال إعيائها الشديد هدوء وسكينة. وظنت أنها تمد أطرافها المحطمة على الرمال، أمام البحر، ولم تفكر في الصلاة.

١٢

وبعيداً عن هذه الغرفة، في الجهة الأخرى من الدهليز، في غرفة الاستقبال الصغيرة المجاورة للمطبخ، كانت الأم وابنها يرقبان نشوب اللهب وفناءه في كتلة من الخشب، بالرغم من أنهما في ذلك الوقت كانا في شهر يونيو. وكانت الأم قد تركت على بطنها جوربا مشغولاً الى نصفه، وأخذت تحك بالإبرة الطويلة رأسها حيث يبدو قليل من جمجمتها البيضاء بين خصلات شعرها المصبوغة. وتوقف ابنها عن أن يقصّ بمقص أمه ورقات من طبعة شعبية لحكم الفيلسوف إبيكتيت. ولأنه كان فيما مضى طالباً في مدرسة السنترال، فقد كان يعتقد أن الكتاب الذي يشتمل على أهم الحكم التي ألقيت، منذ أن خلق البشر، قد يكشف له بطريقة رياضية عن سر الحياة والموت. ولذلك أصبح همه كله أن يجمع الحكم من مصادرها. وكانت تسلية القص وحدها تعينه على الوقت كما كان في حال صباه. أما في هذا المساء فلم يكن هناك ما يصرف الأم وابنها عن أفكارهما. وانتفض فرنان كازيناث على قدميه الطويلتين دفعة واحدة وقال:

- يبدو لي أن أحداً يدعو.

ومضى يجر نعليه الى الباب. ولكن أمه أدركته مسرعة:

- لن تعبر الدهليز مرة أخرى؛ فقد سعلت ثلاث مرات في هذا المساء.

- إنها وحيدة.

وماذا كان يخشى من خطر؟ ما أكثر ما يغلو في تقدير هذا العارض! فأخذ بذراع العجوز وهو يقول: أنصتى. ولم يكن يصل إليهما إلا صوت قاطرة وصفر بلبل في الليل، يصحبهما ارتجاج المنزل المستمر بسبب مناورات القاطرات في المحطة. وسينقطع هذا الارتجاج حتى أول قطار في الفجر. وقد تمر مع ذلك قطارات البضاعة الطويلة، في خارج المواعيد الرسمية، فتزلزل الأرض زلزالاً يدفع كل فرد من أسرة كازيناف الى أن يهب من نومه مذعوراً، فيضيء شمعته وينظر في ساعته. ثم جلسا وقالت فيلستيه؛ لكي تصرف انتباه ابنها:

- أتذكر؟ لقد قرأت الليلة حكمة وكنت تريد أن تقصها؟.

وتذكر الحكمة. وكانت في مجموعة سبينوزا. وهي فيما يظهر: «الحكمة تأمل في الحياة لا في الموت».

- إنها جميلة، أليس كذلك؟.

ولما كان قلبه سقيماً، فقد أوحى إليه الخوف من الموت باختيار الحكم التي تحبب الحياة، كما أوحى إليه غريزته بالحكم التي كان يسيغها عقله الذي كان أقل دُرْبة في عالم الفكر منه في عالم الأرقام. وتمشى في الغرفة، وكانت جدرانها مكسوة بالورق الأخضر وقد نقشت عليه خرائط بارزة، وفيها أريكة وكراسي مغطاة بالجلد الأسود تعيد الى الذهن أثاث غرف الانتظار. ويحيط بالنوافذ أشرطة من القماش طويلة ضيقة، ذات لون يحاكي رواسب النبيذ. وكان مصباح المكتب يلقي ضوءاً

على دفتر حسابات مفتوح، ومقلمة فيها أسنان ريش للكتابة، ومغناطيس وقطعة من الشمع مسودة. وبدا مسيو تيير مبتسماً في بلورة كباسة للورق. وقد رأى فرنان وهو عائد نحو أمه على وجهها الأغبر المتنفخ تقطبة ضحك مكظوم، فنظر إليها كأنه يسألها، فقالت:

- حتى هذا الجهيـض لم يكن ذكراً.

فأجاب بأنه ليس من الممكن أن تُلام ماتيلد على ذلك، غير أن العجوز هزت رأسها دون أن ترفع بصرها عن إبرتها قائلة: إنها عرفت كيف «تكشف هذه المدرسة الصغيرة» من أول مقابلة. وجلس فرنان من جديد قريباً من المائدة، وقد لمع عليها المقص الملقى بين كتب الحكم المقصصة. فقال متجرباً:

- وأية امرأة ظفرت منك بالرضا؟

عندها قالت السيدة العجوز في غضب مبتهـج:

- وعلى كل حال لم تظفر به هذه المرأة!

فقد وصمتها بالحماسة منذ اليوم الثاني لزوجها حين قاطعت زوجها بقولها: «لقد رويت ذلك من قبل» كلما سمعته يروي قصة المسابقات التي كان مغرمًا بها، أو يردد قصة إخفاقه الوحيد الذي أصابه في مدرسة السنترال، والشرك الذي نصب له في الامتحان فلم يلتفت إليه، أو يذكر حسن احتمالـه ذلك المساء حين اتخذ زينته وذهب في ثوب السهرة الى الأوبرا ليشاهد قصة «الهوريـنو».

- وغير ذلك مما لا أريد قوله!

بالها من حمقاء! لقد كتبت على نفسها الشقاء! فلم يمض شهران حتى عاد الابن المحبوب الى النوم في سرير الطالب الصغير اللاصق

بغرفة أمه. وظلت الدخيلة وحيدة في الجناح الآخر من الدار. ومنذ ذلك الحين، أصبحت وكأنها أقل شأنًا من ماري دي لادوس. وظلت كذلك حتى جاء اليوم الذي قلدت فيه بعض النساء اللاتي كن في عصر الإرهاب يدعين الحمل ليتقين به المقصلة. فالذي حدث أن الخبيثة قد كسبت فرنان مرة أخرى، وأصبحت مقدسة لديه. فكان يشمخ بأنفه غروراً؛ إذ توقع أن عدد أفراد أسرة كازيناف سيزيد واحداً في الوجود. وكان فرنان يقدر اسمه مثل سيد عظيم، فكان هذا يكيد فيلستيه؛ لأنها من سلالة بيلوير الناشئة من «أعرق السلالات في بلاد اللاند» وهي لا تريد أن تتذكر أنها في عام ١٨٥٠ عندما دخلت في آل كازيناف كانت جدة زوجها «ماتزال ترتدي الملحفة». ولم تجد ما يدعو إلى الصراع في أثناء الأشهر الخمسة من الحمل... آه! حقاً إن العجوز كانت تعمل في الخفاء على إسقاط الجنين؛ لأن العدو كانت تستطيع أن تلد ولداً حياً... وشكراً لله فالقابلة قد قررت أن ماتيلد ليست حسنة التكوين، وأنها عرضة «للحوادث».

- يا عزيزي إنني أفهمك. ما كنت لتتهم بالمولودة وتحرص عليها؛ فإن منظرها كان لا بد يسؤوك، وكان يصيبك منها ما يصيب الوالد من ولده من المضايقات والتكاليف، ولا سيما أن ماتيلد لا تستطيع أن تغذيها؛ فهي لا تصلح لذلك، فكان لا بد لها من مرضعة، أما أنا فلقد لبشت على قدمي ثمانية أيام بعد ولادتك ولم أفطمك إلا بعد ثمانية عشر شهراً، وفعلت ذلك أيضاً مع أخيك البائس هنري.

فقام وقبل جبين والدته، وقال في عظمة:

- لاغرو، فأنت المثل الكامل لمؤسسة أسرة.

وجلس من جديد، وبدأ أنبن المقص.

- أخبرني يافرنان ماذا كنت تصنع بينت صغيرة؟ وما كانت تمل من هذا الإلحاح، إذ كانت تراقب انتصارها عليه:

- تصور بنتاً صغيرة تقوم تربيتها على كراهيتنا.

وثبت في الفضاء عيينين جاحظتين كأنه يبحث فيه عن ذلك الشبح الوهمي والخيال الواهي الذي كانت أمه تخترعه. ولكن شيئاً من ذلك لم ينل من قوة خياله.

لم يُتَح له أن يرى هذا المولود الصغير الذي كانت زوجته الشابة تخلقه في مخيلتها لكي تتعزى به عن موتها وحيدة في غرفة. فقد خلقت من هذه اللقافة الدامية التي حملتها القابلة شخصاً حياً تستشعر ماتيلد عضته في ثديها. وما صورة وجهه لو ولد حياً؟ اكتشفت المحسومة في أغوار قلبها أنه لا يشبه أي وجه عرفته - وجه متوسط الحسن، يعلوه الهزال والضعف، له في طرف شفته اليسرى تلك العلامة التي كانت لدى ماتيلد. «وقد كنت سأظل جالسة في الظلام بالقرب من مهده حتى يمر القطار السريع الذي سيفزعه».. ولم يكن لهذا العالم الخسالي الذي حبست فيه نفسها مع الطفلة المزعومة صلة بهذا الوجود. فليس في إمكان من يكرهها أن يطاردها في عالمها هذا. وها هو رأسها المثقل حيث كان الدم يندفع. لم تستطع أن تتخلص من سؤال ملح معقد سبب لها العذاب: هل يعلم الله أبة شجيرة كان مقدراً لها أن تنمو من هذه البذرة الميسته؟ هل يعلم الله ماذا كانت تؤول إليه تلك العيون المنطفئة؟ ألا نجد بعد الموت ملايين البشر الذين عاشوا من قبل؟ ما الذي كان مقدراً لهذه اللقافة من اللحم في طي الزمن...؟ وهنا كل فكرها؛

فقد ارتدت عنها لفحة النار، وتظاهرت الحمى بمغادرة جسمها المنتفض
 المغمور بعرق لزج، وظلت فريسة هذا الاضمحلال الذي لم يكن إلا بداية
 الموت. وأحست بأن وحشاً مفترساً قد ألقى بها جانباً. آه! لعلها تعود
 من لحظة الى أخرى، راقبت وهي على ظهرها إقبال الرعشة نحوها،
 ورصدت علاماتها ولكنها لم تقبل بعد، فسبرت أعماقها كمحملق في
 سماء مكفهرة لا يستطيع أن يأمل انقشاع العاصفة عنها. ربما الحياة!
 الحياة! وجرت على خديها دموع ثقيلة سخينة فضمت يديها للزجتين
 وقبضتهما: «اذكري أيتها العذراء النبيلة أننا لم نسمع حتى الآن أن
 أحداً ممن اندرجوا تحت لوائك ونشدوا معونتك قد كُتب عليه الإهمال
 والهجران...» وقذفت من جديد على ساحل الحياة، وعادت تسمع
 موسيقا العالم الليلية، والليل يتنفس في الأوراق. والأشجار الباسقة
 تتهامس تحت ضوء القمر فلا ينبه همسها العصافير. وعبرت موجة من
 الهواء النقي المنعش المقبل من المحيط، فسرت على قمم الصنوبر
 الكثيفة، وفي حقول العنب الواطئة وحملت أريج الزيزفون القائم في
 الحديقة، ثم تلاشت أخيراً على هذا الوجه الصغير الطليح.

٣٣

بلغ الإعياء منها مبلغاً كبيراً ولكنه كان عذباً لطيفاً. كان قلبها وحده يدق بجنون نسبي، وكانت لا تحس معه بألم. لا، لا. إنها لن تموت، ستحيا ولن تسمح للعدو أن يسيء إليها. ليتها تحمل مرة أخرى! حينئذ ستضطر العدو إلى الاستسلام. فحسبها أن تكتم أنفاس حماقتها. أما فرنان فما أيسر أن تلجمه وتمسك بزمامه! ولقد أخطأت بحماقتها حين أسلمت نفسها بعد الزواج إلى طبيعتها المرحية دون أن تكتم شيئاً منها. فتمادت في السخريّة التي أحببتها وقاست من جرائها في أيام خطبتها، واعتقدت أنها سلاح يكسبها المباراة التي لم تبدأ بعد. وكانت ماتيلد تعمل كمدرّسة عند آل لاشاسيني. ومن خلال شجر الحناء الذي يفصل بين أملاك آل كازيناف وحديقة آل لاشاسيني، فكرت الفتاة: ما كان أسهل إشعال نار الرغبة في قلب رجل خجول قد حبا إلى الخمسين، لا سيما وقد وقعت السمكة الكبيرة بإرادتها في الشرك المنصوب. وكان على ماتيلد وهي ترقب ما يدور من مناقشات بين الأم وابنتها - أن تعلم أن هذا الرجل التقطها كما تلتقط الكرة وأنها لن تكون إلا سلاحاً في يده ستعين به في الصراع اليومي الذي كانت الأم تتغلب فيه حتى الآن على ابنها. أما في هذا المساء، فمع كونها صريحة في هاوية من

الإعياء، فإنها تأمل أن تنتصر من الآن فصاعداً على ضحكتها المسترسلة ونخدش سخريتها التي أثارت غضب فرنان من قبل، ذلك الصنم الذي نعود أن يُعبد. ولقد نسيت إن حياة بائسة بأكملها قد كوَّنتها على هذا المنوال، وأن قلبها قد أصبح جامداً كالصخر، وأنها نسلحت بالطبع الحشن، وأقامت السخرية حداً بينها وبين العالم.

عاشت فتاة صغيرة في منزل واطئ من شارع دي كوديران - وفي بوردو يطلق على مثل هذه المنازل اسم دكان - وكانت هي، وچان أخوها الأصغر، يرسلان ضحكات خفية عن أبيهما - وكان مدرساً للسنة الثالثة بمدرسة اللبسية - إذا ما انقطع عن تصحيح الواجبات، من جراء إصابة عينيه بالسُّدَد. فقد كان مصباح المكتب لا يوزع الضوء كاملاً في الغرفة، فما كان يضئ منه إلا كفتين نحيلتين ممسكتين بكراسات ملأى بخطوط الأطفال. وكان الضوء يكسب وجهه الذاهل خضرة غريبة. وعرفت ماتيلد وچان، منذ ذلك الحين، أن أمهما لم تمت في بوردو كما كان مزعوماً، ولكنها ماتت تحت سماء أخرى، وبجانب رجل آخر. وعلى كل فقد كان ضحك البنت وأخيها على أبيهما بريئاً من كل خبث؛ إذ لم يسمعا يوماً يشكو أو يتألم، فريسة مطاردة تلوذ بالصياح.

إنه لنصر هائل لهذا الطالب النورمالى، المشط الذقن، والمعتني بلحيته حسب عادة أهل عصره، في العام الذي ألقى فيه عشر محاضرات على تلميذات مدرسة في موضوع «مرض رينيه». فقد فاز بفتاة من آل كوستو (وهي بنت أخي أحد مجهزي السفن، وكان أبوها قد أفلس في أحد اصطبلات خيول السباق) إلا أن فتى من عشيرتها أخذ يتردد عليها، ولم يقدر الرجل على حمايتها منه وهكذا كانت طيبة قلب

هذا المدرس وبالأعلى عليه، فبينما لم يحضر أحد من آل كوستو عقد قرانها، غدوا بتكلفون في رد تحيته بعد أن خانت امرأته، ثم أدى، الإجهاد العقلي، القصير والمتوالي، الى حالة لم يستطع معها أن يقوم بتصحيح كراساته بمفرده؛ فكانت ماتيلد، وهي طالبة في ذلك الوقت، تقوم مقامه، كما كانت كل صباح تعينه على الصعود في ترام «الكروابلانش» وتصحبه الى الشارع الواقع خلف اللبسية حتى لا يستطيع أحد من الطلبة أن يتعرف عليها، وتظل واقفة ترقبه على حافة الرصيف وهو يدلف بعيداً على ركبتين لينتئين متجهاً نحو حجرة الدراسة حيث ربما كانت تنتظره ضوضاء التلاميذ. ومع كل فقد كانت لاتزال تضحك في ذلك العهد المرير من قول ابن خالته لاشاسيني «مبعوث العناية الإلهية» إنه لا يتصور كيف أن المدرس لم يفكر في الاستقالة من تلقاء نفسه، أو من قول السيدة لاشاسيني مراراً (وكانت من آل كوستو) إنها لو كانت في مركزهما لاستغنت - بلاشك - عن غرفة الاستقبال والخادمة. كذلك كانت تسخر ماتيلد من أن أباه، وكان أبناء خالته يفضلون جان عليها تفضيلاً ظاهراً. فقد كانوا يعجبون بوجهه الملائكي وخصلات شعره القصير ذات لون الذهب المحروق، وأسنانه الحادة، وضحكته المنعشة. وكان من عادة جان، إذا حل المساء، أن يهرب من نافذة غرفة الاستقبال. فتظل ماتيلد ساهرة حتى تفتح له مزلاج الباب العام حين يعود بعد منتصف الليل وعينه الساذجتان الفاحشتان تحيط بهما هالة من الجهد اللذيذ، ويدها ملوئتان وقميصه لايزال مفتوحاً، وعلى رقبتة المؤنثة آثار القبلة الأخيرة. فكانت تستقبل ملاك الفجر الذابل بسخرية جافة دون أن تؤنبه. وحدث في عهد ما، أنه كان عاشقاً لإحدى راقصات مسرح البوف

فحمل الى مصرف الرهون بعض القطع الفضية على مرأى من ماتيلد، ولكنها لم تفكر في أن تنبه آباها وآل لاشاسيني. وقد اعتقدت أن كل شيء قد رجع كما كان حين ردها الى موضعها بدولاب الأدوات الفضية نادماً على ما فعل ندماً رقيقاً، حتى إن ماتلد - وما كانت تتبسط إلا بقدر - قبلت وجهه الملائكي العزيز، وقد أصبح أقل نضارة مما كان أيام ربيع، فتلوث بحبوب صغيرة قذرة. وعلى كل فقد تعود الملاك أن يطير في كل ليلة من ذلك الربيع المشؤوم. ومع كونه ملاكاً، فلم يكن جسمه من الرشاقة بحيث يستطيع أن ينفذ من خلال النافذة حين يقدم في منتصف الليل، فكان لزاماً على ماتيلد أن تظل ساهرة حتى تفتح له المزلج. وقد يرفض الملاك النوم مطرقاً البصر محركاً في جيبه قطع الذهب، وقد يقذف بها فجأة على المائدة قائلاً إنه سيحصل عليه ولو لم يكن موجوداً. وتفوح منه رائحة التبغ والعطر والفراس، ويدندن في أغنيته «لا. لن تعرفي أبداً - يامن أستعطفك اليوم - أحبك أم أكرهك...» وهي ترجوه ألا يوقظ الأب بصوته، وهو يصمم على أن تذهب الى المطبخ؛ لتبحث له عن فضلات الطعام، فيبعث ذلك الدهشة في ماتيلد، وتجذ في وجبة مابعد منتصف الليل تسلية مرة. وفهمت أحاديث الغلام فهماً سيئاً؛ ورغماً عن وجود هذا الولد الفاسق فإنها لم تجد ضيراً في أن تنصت الى هذره حتى ساعة الترام الأولى المرتجفة. وأخيراً انفجرت الفضيحة، وسرعان ما أخدمت بفضل ناظر المدرسة، وآل لاشاسيني وآل كوستو. ولم تعرف ماتيلد شيئاً مما حدث، إلا أن البوليس قد تدخل، وأن آل لاشاسيني يستحقون الشكر الجزيل، لأنهم استطاعوا أن يرحلوا چان الى السنغال حيث يقتني آل كوستو عدة

مصارف. وظل الوالد بضعة أشهر وهو في ذهول نسبي حتى قنى آل شاسيني له الموت لصالحه ولصالح غيره. وتنفسوا الصعداء يوم وفاته وذكروا مراراً أنه يوم خلاص وتحرير. وكانت السيدة لاشاسيني تعلم أنها لو كانت محل ماتيلد ما كانت رقتها لتجعلها تصمم على ارتداء السواد لأن تلك العائلة هي التي ستدفع ثمنه كما جرت العادة. وقد دفعوه وأخذوا اليتيمة الى منزلهم الكائن في لانجون حيث كانوا يمضون فصل الصيف. وأوصوا ماتيلد ألا تتعب طفلتهم السقيمة. وعرف آل لاشاسيني عن قريبتهم الفقيرة أنها «حاذقة تعرف كيف تختفي» والواقع أنها كانت تختفي عند تقديم الحلوى، حتى في أثناء الطعام كان يقال إنها تطفئ شعرها الأشقر، وإنها تظل مطرقة لانشخص الى شيء، وإنها تنتقي لفستانها لوناً يشبه خشب الجدران. وإذا ذكرت الأحاديث الخاصة بالأسرة في حضورها، لم يحترسوا من وجهها الباسم الذي يرى ويتظاهر بأنه لا يرى ولا يسمع، ويتصنع أنه لا يسمع. عند هؤلاء القوم كانت ماتيلد ترضي «الى آخر مدى» طبيعتها الساخرة التي سببت حتفها فما بعد عند آل كازينايف؛ إذ دخلت بيت الزوجية وهي على هذه الطبيعة الجافة الجذبة: أرض حزينة لا ماء فيها! فهي التي لاتعرف عن الرجل الكريم إلا صورة أبيها المضحكة المسخرة الذي كان أجره في المدرسة أقل من سائق السيارة (وكان يجمع في عليه التبغ أعقاب سجائره). ولاتعرف عن الحب إلا ماجربته في صورة أخبها الملاك ذي الريش القذر الذي كان يهبط في الليل على باب الدكان العتيق. وها هي تنظر خفية الى آل شاسيني بقسوة وحشية وكانت تقول إنهم في درجة واحدة من السمنة لأن همهم منصرف الى غذائهم، وإن الشحم يأكل عيونهم، وإن للزوج

والزوجة، أو قل للأخ والأخت، من اللحم والأشداق اللامعة بحمرة خالدة، صوراً متمائلة؛ فهم يشبهون - على حد تعبيرها - غبلان البحر ذوات الأنامل المنقبضة، ولا طموح لديهم أكثر من ابتهم هورتنس التي كتبت عنها ماتبلد في مذكراتها السرية: «إن حول رقبتها عدداً كافياً من اللآلئ تخفى به معالم مرض الخنازير». وما أشد احتقارها لهم حين كانوا يتكلمون على المائدة بتراخٍ، ويخللون بين الكلمة والأخرى بلقومات كبيرة! «إنهم لا يتابعون سير الحديث إلا بعد الازدراء، مثلهم كمثل من لا يضحى بالطعام في سبيل الكلام». وألفت كلمة مناسبة لوضعها على قبورهم: «أكلوا واستبقوا الفضلات الى جانبهم».

ولكن شخصين آخرين من وراء شجر الحناء الحاجز، كانا يصرفانها عن لهوها مع آل لاشاسيني. ويمتد هذا الحاجز على طول ممر الجنوب الأثير عند فرنان كازيناث، ويفر فيه من الرقابة الأموية. كان الابن الكهل يتمشى ملقياً نظرات خائفة عن يمين ويسار، ويدخن سيجاره خلسة كما يفعل التلميذ. فإذا حدث أن انقضت عليه فليستيه من إحدى المنصات التي كانت تراقبه منها، لم يكن لديه من الوقت ما يمكنه من دفن باقي السيجارة في حوض زهر. وفي ذات يوم رآته ماتبلد يلتهم في الخفاء شماعة كانت حرارة أحشائه تمنعه من أكلها. وقذف ببقاياها من فوق الحاجز فأصابت الجاسوسة في وجهها. فلقت بقاياها كدليل اتهام في صحيفة، وذهبت بها الى آل كازيناث تخبر ماري دي لادوس أن لصاً كان يسرق في الحديقة، ثم عادت تتربص وراء الحاجز، حيث وصل إليها صدى العاصفة المنفجرة.

غير أنها قد روقبت في كثير من الأحيان، وكانت تتظاهر بأنها لا ترى كازيناث الضخم الذي يحكي في ضخامته إله الينابيع، وهو يفرق فروع البشملة والبندق والحناء. وفي الحقيقة لم تكن تتطلع من وراء هذه النظرة البلهاء الى آمال واسعة: فالفتاة الجارونية قد تعودت من الرجال مثل تلك النظرة الحرجة والالتفات الطامع. إلا أن السيد لاشاسني كان يضايق ماتيلد ويشغل عليها: فزعم أن فرنان كازيناث سأله بعض أسئلة خاصة بالفتاة وطبيعتها وذوقها، وأراد أن يعرف ما إذا كانت أمها من آل كوستو... وكيف أن ماتيلد لم تذكر حينئذ المحاورات التي ضبطتها من خلال الحاجز، ولم تكن تدرك منها إلا الجلبة والضجيج (فقد كانت الأم والابن يتهاديان متكاتفين كسفينتين باليتين، وبيتعدان عن ممر الجنوب فلا يظهران إلا مرة أخرى عندما ينتهيان من لفة الدوران).

في هذا المساء خيل إلى ماتيلد أنها تسمعها في ظلمة الليل وقد اشتد تعبها فلا تستطيع أن تمد أصابعها الى لحافها. إنها لم تشعر بالعرشة بعد ولكن هل تستطيع أناملها أن تبرز من هذه الهوة السحيقة من التعب؟ أما لهذا التحطم من نهاية؟ إنها تعتقد أن جسمها ليس متحطماً بالمرض ولكن بضربات الرجل والمرأة العجوز. تتصور الفتاة أنهما الآن في غرفة المكتب وكم انقضت فيها سهرات غبراء! «ها هي ذي تصلح قطعة من الخطب، وتبعد المقاعد، وتضع حواظ الشرر، وتقول لولدها: لم أقبلك. سأذهب لأنني أطراف اللحاف تحت المرتبة».

تذكرت ماتيلد كم كان قلبها يخفق يوم اختفت وراء الحناء؛ لتراقب الزوبعة الصاعدة من الصوتين المختلطين: رأت الأم والابن يظهران أخيراً من نهاية الممر وبصيح فرنان بأعلى صوته متهماً إياها بأنها، في أثناء

الانتخابات الأخيرة، اضطرت أن يرفض عرض لجنة الحزب الراديكالي، ولم تسمح له أن يحتفظ بمنصبه مستشاراً. ووفقاً على بضعة أمتار من ماتيلد المتربصة، وقالت له العجوز:

- قصدت أن تتمتع بالحياة قبل كل شيء. أسمعني؟ تتمتع

بالحياة!

- دعيك من هذا! فإن الطبيب دُلوك كان يؤكد لي أنني في غاية

القوة إلى الأبد وأنا مبنية بالجير والرمل، وأنا سأعيش بعدكم جميعاً.

فأنت قصدت أن أعيش قريباً منك. هذه هي الحقيقة.

- أنت مبنية بالجير والرمل؟ دُلوك أخبرك بذلك ليتملكك. كأنك لم

تشك منذ أن أصابتك الحمى القرمزية وأنت في العاشرة، بأكداس من

الآلام عجز الأطباء عن تشخيصها! أضف إلى ذلك التهابك الرئوي

الزمن في سنة تطوعك للجيش... وغير ذلك مما لا يحصى.

ولما ظهر من جديد بعد جولة أخرى، عرفت الفتاة أن موضوع

النقاش قد تغير مجراه:

- إنك لا تريد أن أتزوج حتى تسيطر علي أكثر من الآن.

فأنت... أنت التي نمت وحدتي وانعزالي.

- أنت تتزوج أيها الماجن البائس! أريد أن أراك تتزوج.

- لا تتحديني.

فهزت العجوز كتفيها مبهورة الأنفاس، وهي تروح بمبدالها على

وجهها الأدكن. في ذلك اليوم عرفت ماتيلد ما جهلته بالأمس. عرفت ما

أسست الأم عليه اطمئنانها: فقد كان يحدث كثيراً عقب المشاجرات

المسائية أن يأخذ فرنان القطار إلى بوردو حاملاً حقيبتة الخفيفة؛ ليصل

الى تلك المرأة التى كانت السيدة كازيناڤ تشير إليها دائماً تحت لقب «مزاجه».

- ألا تعلمين أن لفرنان مع الأسف «مزاجاً» فى بوردو يسكن فى شارع هيجوري؟.

وترد قائلة: «إنه وجَّهها توجيهاً طيباً، فمن الممكن أن يطمئن المرء عليه فلن تقضي على ماله». وعلى كل فلم يستطع مزاجه أن يستأثر بفرنان أكثر من أيام ثلاثة: ثم يعود وهو يرتعد من البرد؛ لأنه كان ينسى ملابسه الداخلية ويأتى مثقلاً بالنوم؛ إذ أن من عاداته ألا ينام مع شخص آخر - وقد أثارت سخطة المطاهم والنفحات. وكان يعود أخيراً منهكاً كسير النفس، لأن هذا النوع من المجهود كان يتعب مراكز أعصابه.

- سأخذ غداً قطار الساعة العاشرة صباحاً.

- على راحتك يا ولدي. مع السلامة.

تذكرت ماتيلد ما كانا يعويان به من هذا التهديد وهذه الإجابة. وتذكرت أن تنفيذ القدر المحتوم قد بدأ منذ ذلك الحين؛ فلقد عقدت النية حين سمعتهما على أن تأخذ هى أيضاً قطار العاشرة صباحاً.

لن تخدعي نفسك، ولن تشعري برعدة يعد الآن. كنت توهمين نفسك وهما بأنك مصابة ببرد من ريح المساء أو من هذا العرق المتصبب من أناملك، ولقد كتبت على نفسك الشقاء. فلا شيء من الحنان قد جذبك نحو هذا الرجل العجوز. لقد دفعتك غريزة الضباب الى البحث فى كل مكان عن منفذ لحياتك المحكومة التابعة، وإن من أخطر الأمور أن نبصر الأشخاص بمنظار المنفعة، وألا نبحث فيهم إلا عن قيمة

استغلالهم. كنت نستجوبين كل مخلوق، وكل حادثة، وتجيلين فيها الطرف كأنها بطاقات تتأملين فيها سبيل النجاة. كنت تدفعين كل باب موروب - أسيرةً لاتبالين بما يشرف عليه الباب من خلاء أو هاوية. ولاشك أنك ما كنت تتصورين أن كل ماصنعه من الحيل قد أفلح في ذلك الصباح حين احتججت بطبيب الأسنان، وأخذت تذكرة الدرجة الثانية الى بورود وجلست حيال فرنان كازيناث...

الآن أيقنت ماتيلد: فالعاصفة القاتلة تعود فتثنيها وتهزها وتنفذ الى أعماقها، ونعمل على اقتلاع شجرة صغيرة نابضة بالحياة. تذكرت أنها كانت تصيبها الحمى وهي صغيرة، فتلهو باصطكاك أسنانها. فلم لاتلهو الآن بكل جوارحها؟ ما أشد اهتزاز السرير! إنه ما كان يهتز بهذه القوة في المرة السابقة. ومن أعماق هذه العاصفة، أحست بهدوء الليل إحساساً غريباً حول جسمها المهيض، وأصغت في عالم حالم منيع الى همس العصافير والقمر يوقظها، والى الريح اللينة وهي تكاد تهز أعلى قمم الأشجار. وحيدة! وحيدة! أين أبوها، فقد كان يحضر ليجلس قريباً من سريرها أثناء مرضها، وهي طفلة، ويعبث بشعرها الندي بيد خرقاء! وعلى ضوء مصباح النوم يظل يصحح الواجبات حتى تحل ساعة الدواء. الموتى لا يعينون على أن يلحق بهم أحد من الأحياء الذين أحبوهم. ونطقت بصوت جهير اسم أخيها جان فربما لا يزال على قيد الحياة. وتمنت من أعماقها أن تعرف عنه شيئاً بالرغم من أنه لم يجب على أي خطاب منها... فأين غرق هذا الغلام الضعيف؟ لا قشعريرة الآن. لقد دخلت في موقد من الحمى الفظيعة؛ أصبحت كلها تحترق كصنوبرة صغيرة. ورأت ريحاً منتنةً مغمورة بموجة من زيد البحر لاتكاد تفارقها وتكشف عن

تتنها حتى تعود إليها فتغمرها من جديد، رأتها وهي على شاطئ قفر
 تكاد تنقضّ عليه سماء من النار. وبالرغم من أن هذا الوجه قد تحطم
 بصورة بشعة فقد كانت تعلم أنه وجه أخيها جان. ولم تكن تناجي في
 هذيانها إلا أخاها فلم تحب شخصاً غيره، ولم يحبها أحد سواه، وبات
 جسدها يحترق بالموت، وما كان قد احترق بالحب من قبل، وما تهيأت
 ماتيلد بسقم الوجد وفناء الهوى، لموت الأبد وفناء الجسد، ولكنه القدر
 قد شاء أن يكون هذا الجسد على وشك الانتهاء قبل أن يعرف سره
 الشخصي.



بعد ذلك بساعة أشعلت الأم كازينا فعود ثقاب ونظرت في الساعة - ثم ظلت لحظة مصغية، لا الى الليل الذاهب المتجمّع، بل الى أنفاس ولدها المعبود من وراء الحائط. وبعد أن حدثت نفسها برهة تركت مخدعها وأزلقت رجليها الرهلتين في حذاء منزلي وخرجت من غرفتها وهي تمسك الشمعة، ولبست رداءها البني ونزلت السلم وسارت في الممشى، ثم عبرت الدهليز المهجور ووصلت الى أرض العدو، وتسلت بخفة، ما استطاعت، ودرجات السلم تفرقع تحت ثقلها، ووقفت تصغى. ثم استأنفت سيرها، وأطفأت شمعته وراء الباب فلا حاجة إليها، وأرهفت سمعها. وبدا مستهل النهار تحت السلم أذكن اللون. لا أنين ولا شكوى، بل صوت غريب أشبه بصوت صَنِجٍ مختنق. أسنان تصطك، وتصطك. وأخيراً تصاعد نحيب وأنين... الله وحده يعلم ماذا كان يعبر عنه وجه غول البحر وهو يرهف أذنيه. إن عدوتها تحتضر على فراشها. وتراءى لها أن ترجع وتترك ما يجب أن يأخذ مجراه. وترددت العجوز، وابتعدت، ثم عدلت عن فكرتها ولقّت أكرة الباب.

- من هنا ؟

- أنا يا ابنتي.

لايكاد مصباح النوم يضيء الغرفة، فقد غلب على نوره صفاءُ
رطبٍ يتخلل الشيش. نظرت ماتيلد الى كابوسها الذي يقترب، فصاحت
وأسنانها تصطك:

- دعيني، لست في حاجة الى شيء. هذه حمى خفيفة.

وسألتها العجوز هل تريد قليلاً من الكينين.

- لا. لا شيء. لا أريد إلا الراحة، لا أريد إلا أن أدور نحو الحائط.

أذهبي.

- على راحتك يا ابنتي.

قالت ما عندها وأدت واجبها، فلم يبق ماتلام عليه. فلتتحقق
الأقدار.

رفعت ماتيلد يديها وهي تعبر عن إشارة اللعنة ووضعتها لحظة
أمام عينيها حتى بعد أن هربت عدوتها. وأدهشها لون يديها
البنفسجي. وإذا بقلبه مخبول كعصفور يختنق وأجنحته ترف بأشد
ماتكون سرعة وضعفاً. وكدت عن كذب فلم تجد إلا أظافرها الزرقاء.

وبالرغم من هذا الضيق والعذاب الأليم، فهي لاتعتقد في أية أبدية
تلك الليلة وهي على شفا جُرفٍ منها. ولما كانت ماتيلد وحبدة في هذا
العالم، فإنها لم تحس بأنها مشرفة على الموت. ولو كانت أحبت
لاضطرها العناق الى التخلص من قبضة الوجود. فما كانت تريد الفراق
طالما أنها لم تعرف الألفة والمودة. لاصوت رهيب على سربرها يذكر اسم

إله جبار، ويهددها بمغفرة قاسية. لا وجه يذرف الدمع عليها ويحزن على فراقها، فيتسبح بذلك لها مراقبة هروبها المنحدر الى ظل الموت خطوة خطوة. لهذا ظفرت بالميتة العذبة... ميتة الذين لم يحبهم أحد.



- أسمعت ماذا قال لك دُلوك؟

هز دُلوك تحت جسمه الضخم فسحة السلم، وبقي باب الغرفة التي تشوي فيها الميتة موروبا. وسمعت ماري دي لادوس تتنحج. عرف دُلوك بعد ثلاثين عاماً في مهنة الطب حالات التهاب حمى النفاس: فهل لفرنان بعد ذلك أن يعلمه مهنته؟ بعد إسقاطها بثمانية وأربعين ساعة لم يكن هناك ما يدعو الى السهر على المريضة...

- حتى لو جعلت من يسهر عليها؟ فالمسكينة لم تمت من الالتهاب، وإنما قلبها قد خفق. ولولاه لقاومت ثلاثة أيام على الأقل. لقد صادفت قلوباً جاهدت أكثر من شهر. أتذكر حين فحصت السيدة في نزلتها الرئوية وأريتك أبهرها؟

كان زجاج السلم الكبير يكدر زرقه السماء، وقالت له أمه وهو يخلص منها ذراعه:

- أسمعت يا عزيزي ماذا قال لك دُلوك؟

فنطق بعد أن سألته في المرة الثالثة، وهو في مظهر النائم الذي يتكلم:

- كان يجب أن نجعل من يسهر عليها.

ومد يده الى دلوك يضافحه من غسر أن بنظر إليه، ثم مضى الى العمود الأسود الناشئ من رؤية الجزء الموروب من الباب، ودخل فوجد ماري دي لادوس منحنية على السرير، وجلس بعيداً عنها قريباً من المنضدة الصغيرة، وأدرك أن ماري قد انتهت من تصفير الشعر الذي كان لا يزال نابضاً بالحياة. وهزت حركة القاطرة كوباً من الماء. وسمع فرنان أمه ودلوك يرفعان صوتهما على فسحة السلم فشغل ذهنه فى محاولة فهم مايقولان: ألم ير جثة من قبل؟ نعم منذ ٣٧ عاماً رأى جثة والده في غرفة الدور الأول التي أصبحت غرفة المكتب. وكما كانت أمه هادئة! ويذكر الكلمة التي رددتها وهي تقبله: « تلك حاة جديدة نبتدى... »

دخلت أمه في يدها البرقيات، وراقبت ابنها الساكن. وتضاعدت من الحديقة أصوات راهبات دار الضيافة وسببات أخريات، فهل يريد فرنان أن يُدخلهن؟ فأعطى إشارة بالرفض، وأخذته أمه بيدها:
- تعال بنا يا حبيبتي: أنت أدري بصحتك! لا تبقي هنا! هذا يؤثر عليك.

فأفلت يده منها دون أن يلفت رأسه. ونزلت لكي تصرف الزائرات ثم صعدت. وعادت ترجوه أن يذهب لينال قسطاً من الراحة، ساردة له الأسباب التي تعودت أن تذكرها له:
- لم يعد من صالح أحد أن تتعب، فإذا مرضت فسوف يتفاقم أمرنا سوءاً...

وأخيراً تكلم وهو منصرف عنها:

- كم كانت الساعة عندما حضرت لتصغي الى الباب؟

- فأجابته أنها ربما كانت الساعة الرابعة.
- وأخبرت الطبيب أنك سمعت أسنانها تصطك.
- إنني استبعدت بعد روية وتفكير أن يكون هذا الصوت ناتجاً من احتكاك الأسنان.
- فلماذا لم تعودى؟
- قالت لي إنها غير متألّة ولا تشعر إلا بالحر... وإنها رفضت كل شيء حتى الكينين، فانصرفت مطمئنة جداً.
- لم تكوني مطمئنة جداً؛ لأنك عدت في الساعة السادسة لتتأكدي من...
- فلم تحر جواباً وانزعجت - لا لأنها استجوبت كما يفعل القاضي، بل لأنها اكتشفت نبرة حزن في صوت ولدها العزيز. فكانت تعلل نفسها قائلة: «لعلها ذبذبة الضمير...» وتردد لنفسها: «لا ألم عنده» ولكن أي فزع يصيبه! إن ماتيلد لم تكن تستطيع أن تطبق نظرة من العجوز على جسمها العنيد، العنيد الى الأبد. وكان لزاماً عليها أن تنزل لكتابة عناوين البطاقات، ولكنها لا ترضى أن تتركهما لوحدهما. ألقت آخر سهم في كنانتها لتحول دون وجودهما وحيدين! وقد اعتراها الخذلان مما قد أحست به، وتذكرت صورة للبابا في كتاب ميشليه المصور - ذلك البابا الذي نبش قبر سلفه يريد أن يحاكمه، ويحكم عليه، ويهين مومسياء... لم يبق إلا ليلة واحدة حتى توضع في الصندوق، ويضم جثتها غلاف من الرصاص، ويحول دون نظرة فرنان إليها تابوت ذو ثلاثة أجزاء. ثم لن يرى هذا الوجه بعد. ولكن، ما أشد لوعته وهو يتفرس في وجهها! لم يسبق له أن نظر بمثل تلك النظرة الصامتة الحزينة.

ومن جديد اقتريت منه وأخذت بيده متوسلة أمره:

- تعال!

فدفعها عنه. وابتعدت نحو الباب. وكم بدا لها هذا الوجه البعيد النائم الهادئ منبسطاً سعيداً محبوباً! نزلت مبهورة الأنفاس. وبدأت تكتب العناوين، واستعادت وهي بعيدة عن المستة رباطة جأشها. لم تذهب في أفكارها شططاً؟ أليس فرنان قد أصبح ملكاً لها دون منازع؟ ولقد حضرت إليها ماري دي لادوس، وقالت إن سيدها يرجو سيدها ألا تنتظره للغداء فابتسمت؛ فقد كانت مطمئنة إلى أن الراحلة لن تحتفظ به وقتاً طويلاً. فهي تعرف أنه من هذا النوع الذي لا يعذب نفسه في سبيل جشة. ولكن لذته الكبرى كانت تعذيب أمه، لقد ارتكبت خطأ، حين حاولت إبعاده بالقوة، فلو كانت أظهرت عدم الاكتراث لكان ذلك حسبه منها... وعلى كل فسينزل للعشاء، وليكن ما يكون.

اضطرت طوال النهار أن تستقبل السيدات في غرفة الاستقبال المغلقة الشيش، المجللة المرايا، المغطاة الكراسي، كن يرتدين السواد ويتهامسن فيما بنهن، من تحت النقب، ويمتدحن شجاعة السيدة كازينا، ويتمنين أن يقدم لهن حوالى الساعة الرابعة أيسر الطعام، ولو بسكويتة صغيرة، وذلك إما لرغبتهم في أن يقال إنهن لم يضعن يومهن سدى، وإما لأن الموت قد بعث فيهن غريزة الطقوس العتيقة، وهي الرغبة المبهمة في تناول الطعام الذي يكسب الروح سكينه وسلاماً. إلا أنهم اضطروا أن يغادروا المكان وهن جائعات، ولما ودعت فليستيه آخر سيده منهن سألت ماري دي لادوس إذا كان سيدها قد نزل، فأجابتها أن سيدها لا يزال في الدور الأعلى، وأنه طلب، في الساعة السابعة ببضة

مكسورة في المرق، وطلب أن يحضر له «الروب» والحذاء المنزلي وزجاجة النبيذ أرمينياك. وقالت مثلما كانت دائماً تقول عنه: إن سيدي كسائر أفراد أسرة بيلوير، يظهر الشر أحياناً ولكنه في دخيلة نفسه خير من رأيت... وأحست ماري دي لادوس أنه ما كان له أن تضيف كلمة، بالرغم من أنها لم تلمح، في الدهليز المظلم، إلا سيدتها تصيح فيها وهي كتلة لاتبدي حراكاً:

- عودي الى مطبخك يا وقحة.

وأعطت لها الأمر بتلك النغمة التي كان بيلوير الهرم، منذ أربعين عاماً، يستعملها حين يصيح بماري دي لادوس، حين تترك البنت الصغيرة من فرط تعبها، تسقط عن الكرسي: «قومي يا بليدة» ولم يكن يطيق أن يرى خادمة جالسة. في ذلك العهد كانت ماري دي لادوس تظل تخدم واقفة حتى في وجبات أكلها، على أصبع رجلها الكبرى؛ وما كان لها حق الجلوس على الكرسي إلا في أثناء السهرة، على شرط أن تغزل؛ فكل من سبقها من الخادومات كن يغزلن لساتهن المفارش المصنوعة من الخيوط الثخينة. والتي تكسو الآن الجسد الذي لم يعد يتألم.

تناولت السيدة كازيناث العشاء بمفردها وهي ترهف السمع، من حين لآخر، لعل درجات السلم تفرقع تحت أقدام الولد المتعب الطليح. وخيل إليها أنها تسمعه بعد أن تركت المائدة، فأخذت تصطنع وجهاً غير مكتثر: إلا أنه كان صوت القطار السريع في الساعة الثامنة، فقالت في نفسها:

- سيتخاذل في مساء غد.

وألقت رداءً على كتفها ونزلت الى الحديقة. وكانت الريح الشرقية

تقذف الى الحديقة دخان المحطة ورائحة الزيزفون والزنبق الغالبة على رائحة الفحم. وقبعت الطير في الشجر. وشخصت العجوز الى نافذة غرفة ماتيلد وقد انسكب من شيشها ضوء حزين، وقالت بصوت خافت: «غداً ستبلين يا فاجرة». وأفزعت البلبل وهو قريب من شجرة المانوليا. وسكتت الصراصير في أثناء مرورها على طول البراري المتربة. وتخيلت ابنها مرتجفاً في مستهل النهار حيال جثة البارحة، له منظر غريب؛ فهي تعرف أنه يرهب الموت ويخشاه.

٦

حقاً كان منظره غريباً؛ كان يحملق في ماتيلد وهو ملتف بردائه القاتم، وقفاه معتمد على مسند الكرسي. وعلى المائدة الصغيرة كوب من نبيذ الأرمنياك أفرغه ثم ملأه. وفراشات الليل يتطايرن حول شمعتين، ويقرعن ظليهما في السقف. نطق مرة باسم ماتيلد ولو سمعته أمه ما كانت لتتعرف عليه، وقام فاقترب من السرير وأبعد ذبابة وقفت على وجهها، وتأمل هذا الجمال الأبدي، وردد في نفسه: يالك من أعمى! يالك من أعمى!... ولم يدرك أنه حقيقة يرى هذا الوجه للمرة الأولى؛ لأن الموت قد محا كل ذبول عليه: لم يبق شيء من تلك الملامح الجائحة الجافة للبت البائسة التي كانت دائماً تحاسب وتحتقر وتسخر. لم يبق شيء من هذه الضحية التي صاحت وتحدت. لم يبق شيء من هذا الوجه المعوز المطارد. فلو أن ماتيلد كانت سعيدة محبوبة أثناء حياتها لكان لها - وهي على قيد الحياة - هذا الوجه البادي المغمور بالسكينة والسلام. هذا الوجه الذي تخلص من أعباء الحياة «أعمى... أعمى...» أصغى فرنان وهو ثمل قليلاً من الخمر الى آلامه وهي تنبع من نفسه. واستقبل وهو منتش هذا الشعور المجهول، فإذا به نهر يتخلص من ثلج الشتاء الذي تجاوز حده، انتظر خمسين عاماً لكي يتألم من جراء شخص

آخر. وإن كل ما يكتشفه الناس عادة في سن شبابهم قد توصل هو الى معرفته في هذا المساء! سحر قاتل يقيده الى هذه الجثة. واقترب مرة أخرى ولمس بأصبعه هذا الخد وظل وقتاً طويلاً بعد أن ردّ أصبعه، محتفظاً بتأثير بارد لاحد له.

لم يعرف ماذا اتمحي من هذا الوجه. لحظة رهيبة حين بدأ يدرك أن الميتة «تتغير...» خرج فرنان وانحنى على السلم وكان الليل يضيئه، وسمع القطار الذي سمعته ماتيلد بالأمس ساعة احتضارها، وارتجف المنزل كما ارتجف في أثناء أرقها الذي شعرت فيه بخوف شديد؛ وتذكر فرنان أنه كان وعدا بتركيب ضلف لنوافذ الدور الأرضي، فاستعاد ذلك في ذهنه فأحس بطمأنينة حين تذكر أنه قد أبدى لها شيئاً من اللطف في فترة حملها. وعاد الى الغرفة. هل كان يتصور هذه الرائحة أم أنها كانت تنبعث حقاً من هذا الشيء الذي كان ينفر منه، ولا يطيق أن يذكره والذي بدت المفارش ملتصقة به؟ وفتح النافذة ودفع الضلف، ولم يكن ممن تعودوا أن ينفروا من النوم ويتطلعوا الى النجوم. وإذا به يحس أنه قد داهم معجزة حيال صعود العوالم الصامتة، وإنه يجرو على اكتشاف سر. فإن القلق الذي كان يدفعه من قبل الى قص عبارات الحكم قد ازداد في نفسه الآن، فظل واقفاً بين النافذة والسرير، وبين هذه العوالم الصامتة، والجسد الميت. فيا رحمة الله على هذا الحي البائس!

ظل بجانب النافذة لايجرؤ على الاقتراب من الجثة ورشف ريح الليل المعطر فأوحت إليه رائحة العشب والظلام المدوّي، صورة من السعادة كان من الممكن أن يتذوقها، ولكنها ستظل مجهولة الى الأبد. فانقبضت يده: إنه لايرضى أن تموت ماتيلد ولو دخلت عليه أمه لصاح

بها: «لا أريد أن تموت ماتيلدا!» وقد يقول ذلك في نعمة الطفل أيام أن كان يطلب الى أمه وهو مريض فى أن ينام الناس جميعاً، أو أن يُفك له مسامير أحد الخيول الخشبية فى يوم العيد، أو أن تقدم له قطعة من الفراولة في شهر ديسمبر، أو وأن يتركوه يلعب ببندقية حقيقية تقتل وتصيب. وعندما تذكر إحدى الحكم التي كان يقصها، وهي تتعلق بأبدية الروح، ارتفع كتفاه: روح ماتيلدا! وكم كان يسخر من روحها! ما أشد حماقة من يعزي نفسه بذلك! إنه يطلب أن يعيدوا جسدها إليه حياً، يريد أن يرى السرور يشرق على وجهها وهي حية. وكم كان وجهاً خائفاً حذراً! إنه لا يستطيع أن يهرب من نفسه حتى في اللذة. فقد فهم آخر الأمر أن الجسد يبحث بذاته عن اللذة المدفونة، فيكتشفها خارجة عنه ممزوجة بجسد آخر نسعى الى إبعاده. أحس فرنان بأظفاره على جبهته، وصاح طائر ليلي قريب من المنزل، فستقهقر فرنان وقلبه ينبض قائلاً: «لعله الطائر الأزرق الخرافي الذي لا يهبط على المنازل التي مر بها الموت ولكن على المنازل التي يقرب منها الموت. وحلّ منتصف الليل ولم يمر قطار حتى الخامسة، ولم تهب نسمة تهز الأوراق الخاملة، ولم يتصاعد من الحقول إلا قمتة نائمة لأحلام النبات. اقترب فرنان من الدولا ب ثم ابتعد إذ رأى في المرأة رأسه المخيف، كأن في الدولا ب رائحة منتنة تنبعث من ماتيلدا الراقدة على بعد ثلاثة أمتار من هذا المكان. وتكرر هذا الصباح الليلي وكان قريباً جداً كأنه في الغرفة، وقد اضطر الطائر أن يرمي على المدخنة أو ربما فى داخلها! ونظر فرنان الى لوحة الحديد السوداء: لقد سمع فيها دفيف الأجنحة المشؤومة! وتراجع نحو الباب، ونوى الرجوع الى أمه مستخدماً. كانت العجوز جالسة على سريرها فى الجناح الآخر،

لاتطاول نفسها في الإسراع لمساعدة ابنها الجاحد. فقد سمعت دفيف الطائر، وقالت في نفسها فرحة: «إنني أعرفه ولن يتأخر بعد».

وبينما كان فرنان يندفع الى فسحة السلم، اقترب بصيص من الضوء لم يلبث أن أضاء السلم، وظهرت ماري دي لادوس بمصباحها مرتدية ملابس يوم الأحد ورأسها متلفع بملحفة سوداء تخرج منها شحمتا أذنيها الطويلتان. وظنت أن سيدها يريد أن ينام. وأخذ منها المصباح ونزل مسرعاً فانطفأ في المعبر. وبلغ غرفته وخلع ملابسه وتحسس ثياب النوم، واستلقى على فراشه في الوقت الذي كانت أمه تطفئ شمعته. وتخلت عن تقبيله؛ إذ سمعته خلف الحائط يغط في نومه. حينذاك لم تكن ماري دي لادوس معتمدة على مسند الكرسي. بل جلست وجذعها منتصب، ورسمت على الحائط ظلاً غريباً؛ فمها الأدرد سريع الحركة، وخرزات سبحتها في فجوة ملحفتها تشبه حبات الذرة والشعير.

V

لبست فيلستيه كازيناث نقابها، ذات صباح متقد، ونزلت الى طريق الباب الشرقي الممتد على خط سكة حديد «بور دو - ست» ومشت وصدرها يغور الى وراء ويدها على بطنها، وذيل جلبابها يلم التراب والأقذار، وظلت تسير فترة في الطريق الفسيحة، ثم اتجهت يمينا نحو المدافن ولم تلج عتبة الموتى، ولكنها قرعت بسبابتها باب الحارس الزجاجي، فإذا بصوت رجل عبوس، لا يتوقع منها نفحة يصيح في وجهها قبل أن تسأله عن السيد كازيناث: إنه لم يحضر منذ ستة أيام تقريباً. فعادت منهوكة القوى ولكنها مطمئنة إذ أحست بأنها كسبت شيئاً من النجاح في صراعها ضد الراحلة: ذلك أن فرنان، في أحد أيام الأسبوع التالي لتشيع الجنازة، ذهب الى قبر زوجته في سقم الهذيان ودلائل الألم مما أذهل أهل البلدة جميعاً، وكان لا يمضي عليه صباح من دون أن يحضر الى قبر زوجته حاملاً طاقة بسيطة من الزهر والأوراق ذات الأفرع القصيرة كالتي يقطفها الأطفال. وها هو ذا قد أصبح متعباً طريح الفراش! وقالت فيلستيه في نفسها: «هذه هي البداية» وإنما كانت راضية بتعبه مضطرة لحاجتها الى الطمأنينة. وكم كان هذا يتعبها ويقض مضجعها! إنها امرأة واقعية قد فشلت أسلحتها المعتادة في مقاومة شبح

من الأشباح. ولما لم تكن تجيد النزاع إلا مع اللحم الحي فقد حيرها أسلوب المبتة: تلك الكامنة فى فرنان، التي تحتله كالحصن. وتوقعت فيلسنيه بغض ابنها لها، وسخطه عليها، وأيقنت أن ميله المتواصل الى إبلامها سيزداد أضعافاً مضاعفة. لقد كان وهو طفل يضرب كرسي أمه برجليه حتى تصيح به أن يهدأ، ولكنه الآن لا يعاكسها بشيء من ذلك، غير أنه بعدم اكتراثه والتهرب العقلى منها، كان يفسد ألاعيبها ويمنع كل مناورة من جانبها. وعندما رجعت وفتحت الباب الشرقي أحست بأنها متعبة تتصبب عرقاً تحت نير آلامها. واستنشقت رائحة غصون بالية. من شجر البقس الذي كان يحيط بمضخة الماء، حيث تنام الأتان جريزيت وهي واقفة على مسلك من مسالك الأشجار، ووخزت فيلستيه بمظلتها جلد الحيوان البالى فرمح، ثم تحرك وفي هذه اللحظة خطر لها هاجس: «إنه ماكان ليذهب، فيستعيد أحلامه في المدافن أو في الريف إذ أنه دائب التفكير في المرأة الأخرى...» ففي هذا الصباح، خرج كعادته، كل صباح، معوّج الكتف، لابساً قبعة مصنوعة من قش عتيق لازمته ثلاث سنوات، وسترة من وبر القرمل القوي الرائحة. وكان إذا حل الظهر واضطر الى العودة الى منزله جلس حيال والدته وعلى بعد منها. ولم يعد يتأثر بشيء بعد الآن. فلم يعد يعارض مايسمعه منها من محادثات كانت تثير غضبه.

أطلت الملكة العجوز، وقد زال عنها سلطانها، من فوق المنصة القريبة من نافذة المكتب حين كانت تراقب حضور ولدها. فلم تغادر ببصرها الباب الصغير وقد تركت شغل إبرتها ملقى على بطنها. ونبهها القطار السريع في الساعة الحادية عشرة أن فرنان قد قربت عودته. وما

كان توقعها عودة ابنها الحبيب في كل مرة، إلا محاولة لإقناع نفسها بأنه سيضع حداً لهذا الانجذاب القاتل. ورددت الأم في نفسها «سيعود إليّ فلن يتغير المرء بعد الخمسين...» ولم تدر أنه لم يطرأ عليه تغيير ما، فهو ما يزال ذلك الطفل الصغير الرّماح الذي ربّته وتعهده؛ إنه لا يريد أن تموت ماتيلد؛ حتى الموت لم يعرقل أوامره الصارمة!

نزلت من المنصة وما يزال ابنها متأخراً، وظلت تذرع الغرفة وهي تردد للمرة المئة: «هيا بنا، لنفكر»: لقد صعدت في تلك الليلة، وقرعت بابها وسألتها عما إذا كانت متعبة فأجابت بأنها ليست في حاجة الى شيء... نعم ولكن عند عودتك الى غرفتك بحثت عن معنى الالتهاب في قاموس الطب...» وبينما هي غارقة في تفكيرها فوجئت بوقع أقدام فرنان في الدهليز، وسمعته يسأل ماري دي لادوس: «هل أعدت المائدة؟» ولما كان باقياً ربع ساعة على الغداء، خرج الى الحديقة فلمحته فيلستيه من وراء ستار وهو واقف في وسط الممر. إلّا ما ينظر ياترى؟ لم تشك الأم أنه كان يتطلع الى غرفة شارع هجوري حيث كان ينتظره «مزاجه» يوماً من كل شهر، وحيث كانت المناشف المخملية تجفف على حبل ممتد في الشباك. وكانت «مزاجه» تسميه البخيل الهرم؛ لأنها لم تفلح يوماً في أن تنتزع مليماً زائداً على الثمن المحدد، وكذلك كانت قصة فرنان كازينا في الحب. خطر له، وهو يرفع بصره الى نوافذ غرفة ماتيلد: «وعلى كل فقد استطاعت خلال حملها أن تلمس مني عطفاً وحباً، كنت أقف في صفها ضد أمي، غير أنها اعتقدت أنني فعلت ذلك لأجل طفل...» أخذ يستعيد - دون جدوى - كل الظروف التي أبدى فيها عطفاً نحوها. وإنه ليذكر في سفره الأخير، يوم أن سافر الى بوردو

مع ماتيلد: وما كان أشد انفعالها من جراء ما أنفقته في شراء لفائف الطفل! فقد صاح بها قائلاً: «لم تكن الأمهات في زمني يشترين شيئاً ما، وإنما كن يعددن من الشرف أن يحكن كل شيء بأيديهن!» فدلقت ماتيلد وراءه صامتة حزينة، ودخلا في مطعم أفضل مما كان يقودها إليه من قبل: الورد يزين المائدة وماتيلد تبسط منشفتها باسمّة سعيدة. ويسأل فرنان الخادم: «هل الثمن محدد؟» فيجيبه: «لا ياسيدي إنه حسب الطلب» فإذا به، بعد أن ألقى نظرة غاضبة على قائمة الطعام، ينتفض قائماً ويذهب الى صالة الثياب ليرتدي معطفه، وينصرفان فيمران أمام المطعم والزبائن يتهامسون عليهما والخدم يسخرون منهما، ويتخذان طريق الرصيف، وفرنان يتجاهل رؤيتها تبكي.

وعاد فرنان ونهضت السيدة كازيناف على ساقيهما الثقيلتين، فلحقت به في الدهليز قائلة له:

- ما أشد إحساسك بوطأة الحر أيها العايب المسكين!
- وهمت بمسح وجهه المتصبب عرقاً فأدار وجهه فقالت له:
- جسمك يتصبب عرقاً، فاذهب لتغير ملابسك. وإلا مرضت.
- فلم يجيبها، فأردفت قائلة:
- وقد أعددت لك الملابس على سريرك.
- وتبعته الى مكتبه وهي تقول له غاضبة:
- فإن مرضت، فمن غيري يعالجك أو يعنى بك.
- وأخيراً حذجها بنظرة قائلاً:
- لم يبق إلا أن تتركيني أموت كذلك.
- فأفزعتها هذه الضربة فلم تحر جواباً. واخترقا المطبخ دون أن يكشفها

أغطية القدور - كما كان يعلان من قبل - ودخلا الى غرفة الطعام المظلمة ذات الرائحة القوية وقالت له:
- لم تأكل.

ورددت الكلمة في أسف مرير: «لم تأكل» ومن دأب سكان المناطق الساحلية أن يفهموا هذه الكلمة على أنه نذير بالمرض والموت. ففاقد الشهية عندهم فاقد لأثمن شيء في الوجود. فما عليه حينئذ إلا أن ينتظر النهاية.

وهنا قالت ماري دي لادوس:
- وسيدتى أيضاً فاقدة الشهية.

ولم يكن ذلك تصنعاً منها كما كانت تفعل من قبل، حين كانت ماتيلد تدير المنزل. فكانت هي وابنها متفقين على التظاهر بالتفرز من كل صنف من أنواع الطعام حتى يجبراها على التخلي عن إدارة المنزل. ووجدت فيلستبه نفسها وحيدة في غرفة المكتب لم يلحق بها ولدها، وحين وقت القهوة وقد تعودت أن تشربها الى جانبه على الأريكة ذات الجلد الأسود، مسندة رأسها الى كتفه يقرأ الجريدة ويتضحكان كما يصنع الطلبة. فإذا ما فتحت زوجته الباب انفصلا فجأة وتعمدا التظاهر بأنهما يقطعان حديثاً كان يجري بينهما. ولا تنسى فيلستيه ما كانت تسألها العدو بنغمة مدرسة حانقة: «هل أزعجتكم؟» - «لا لا لقد قلنا كل مانريد قوله».

هذه مناوشات كانت تستعيد لها السيدة كازيناف، فتبعث فيها السرور والحياة. ولكن أين يختبئ المحبوب الآن؟ ذهب ليستلقي على فراشه؛ لأنه خائر القوى، فلم يعد قلبه وصدره يحتملان القيام بهذه

المتاعب والانتقالات... ما أشد رغبتها في أن تسرع للحاق به! ولكن ماقيمة ذلك؟ فهو الآن يغلق الباب بالملزاج كما كان يفعل مع ماتيلد من قبل.

نفذ شعاع من الشباك الموارب، فتألق على رف المدخنة إطار الصورة التي تحبها فيلستيه، تلك الصورة التي التقطت بعد شهر من الزواج يوم أن جلست الأم وولدها وكنتتها أمام مصور جوال. وحدث قبل التقاط الصورة بعد لحظات أن هجر فرنان زوجته وانحاز الى جانب أمه. وأودعت الصورة في سجل الصور. وفيها وقفت فيلستيه وابنها في مكان ظاهر، بينما وقفت الزوجة الفتاة في الخلف مرخاة اليدين باسمه الثغر.

هذه ذكرى سعيدة كانت تدفع السيدة كازيناث الى التأمل فيها من حين لآخر. ولكنها اقتربت هذه المرة فوجدت الإطار خالياً، فأصابها الذعر وأبصرت على المائدة المقص وسله الورق... يالله! أحقاً تحمل السلة ابتسامتها وبطنها وأنفها الشامخ؟ انثنت لتري صورتها بين الأقدار. ياله من شقي! لقد فصل عنها صورة ماتيلد ولاشك أنه يحملها الآن على قلبه، في حافظة نقوده، ولاشك أنه يجعل لذته في عزلته أن يقرب الصورة من شفثيه الحارتين. لقد تحملت العجوز ما تحملت في الأسبوعين الفائتين، أما الآن فهي قلقة فزعة من هذا الدليل الملموس، دليل الجحود والعقوق. فحطم الغضب الجنوني في نفسها كل عقبة، وارتجفت أصابعها القبيحة وضربت الأرض بقدميها كما فعلت يوم أن صاحت في وجه ماتيلد: «لن تملكلي ولدي! لن يكون لك أبداً!» واتجهت الى الباب، وقد أشبه وجهها الغبي المتحجر وجه المرأة التي تخفي تحت معطفها مسدساً

محشواً أو وعاء من الزاج. لعله لا يوجد في الحياة أنواع كثيرة من الحب، ربما لا يوجد إلا نوع واحد من الحب، فقد كانت هذه المرأة فى النزاع الأخير من جراء فشلها أن تسيطر على ابنها هذه السيطرة الروحة التي تمكنت من نفسها فأصبحت أشد عنفاً من الرغبة التي تجعل جسمين شاخين يتمازجان فيتفانيان.

دفعت الأم ضلف النافذة وهي تتمزق من الغيظ. كانت شمس الظهيرة ثقيلة على الحديقة اليابسة، ورمال الممرات تتخلل الأعشاب المتربة. وزفر القطار في بدء إقلاعه فذكر بصدر مهموم. وأدركت العجوز السلم وهي تتلوى غضباً، وأخذت أنفاسها تضعف شيئاً فشيئاً، حتى بلغت غرفة الابن العقوق فوجدتها خالية، ووجدت في كل مكان من الغرفة زجاجات تنبعث منها رائحة البول، وشعرت بالخوف عندما رأت لون خديها في المرأة بنفسجياً. فأين تجد هذا الغادر إلا فى غرفة العدو؟ ونزلت، وركبتها السقيمتان تنثنيان تحت ثقلها، وسارت في المشى وعبرت الدهليز المظلم، ولم يبق إلا مشى واحد، ثم السلم المؤدي الى غرفة الميثة القاهرة. ظلت الأم خائرة القوى بضع ثوان، ووقفت جامدة حيال الباب، كما فعلت ليلة الاحتضار وأصغت، ولكن الله هو من يدري حينئذ ما حدث في تلك الليلة على وجه العجوز المصغي فلم يعبر وجهها عن الدهشة والأمل ثم لم يتهلل بفرح جنوني، وأرهفت السمع فإذا غطيط خفيف، يتبعه شيء يشبه الزحير أو الصوت المخنوق؛ وعرفت هذا الصوت جيداً، فكم كان موسيقى لياليها الحلوة التي كانت تسهر عليها وتلتذ بسماعها، من وراء الحائط، وتستدل بها على وجود معبودها. فكانت حينئذ تسهر مصغية الى هذا النفس حتى أنه لم يكن لديها ما هو

ألذ من هذا الأرق. أما اليوم فقد سرقت الميثة منها نومة ولدها العزيز، وهنا، عادت موجة من الغضب تثيرها، وأظلمت الدنيا في عينيها، واندفعت تفتح باب الغرفة.

واضطرت فيلستيه أن تغمض، عينيها فقد كانت النافذتان العريضتان مفتوحتين فتركنا لهيب شهر يونيو المتوقد يتسرب الى الغرفة، وفاحت رائحة الزنبق النابت في قوصرتين على المائدة الصغيرة في الغرفة، كما لو كانت الغرفة مغلقة. وبين هاتين القوصرتين صورة ماتيلد مقصوفة بعناية، ومحاطة بإطار مصدّف أوسع منها. ووضع أمام الإطار، بنظام، ما كان قدمه هدية للخطوبة: فص صغير من الماس وخاتم وقفاز أبيض بال. وأسفل هذه البقايا جلس فرنان خائر القوى على الكرسي، ورأسه يترنح، وقد أخذه النوم من عنقه. ومازال زنبور يتخبط بالسقف والمرأة حتى اكتشف نافذة مفتوحة فتلاشى طينيه في حريق السماء.

ودب حذاء فيلستيه على أرض الغرفة، وغيّر فرنان وضعه، ووقفت، ثم خطت خطوة نحو المائدة الصغيرة فرسمت وهي تمد يديها حركة بوليوكت محطم الأصنام؛ فقد أرادت أن تبصق على الصورة، وتمزقها وتطأها بقدميها ولكنها لم تجرؤ. وسقط رأس فرنان على ذراعه الملقى على المائدة، فلم تر أمه من وجهه إلا كرة كبيرة مرشوقة بأشواك من الشعر الرمادي. وأحست بالبرد على وجهها المبلل بالعرق، وزاغ بصرها وطن الدم في أذنيها، فكأنها تسمع دوي البحر من خلال صدفة كبيرة. وأرادت أن تتكلم فلم يطاوعها لسانها، وما كانت تدري هل ماتسمعه ناشئ عن صوت صراصير أو طنين ذباب أو غليان شريانها. وإذا بيد

خفية تدفعها الى السرير وتلقي بها على الفراش الذي كانت ماتيلد تتألم فوقه حتى قضت نحبها: واستلقت كالوحش، وانتظرت، ثم حملت مشدوهة: فقد مر بها الطائر المشؤوم من بُعد، فزفرت زفرة، وابنها يغط في نومه، فيحدث صوتاً من حلق مزدحم، والخطر الداهم يدعها مرتجفة تتصبب عرقاً. وألقت الى الهيكل المقدس الذي يتبتل فيه هذا الشيخ الفاني نظرة قل فيها الحقد وعظمت الرهبة.

١١

لما حانت وجبة المساء لم يلمح فرنان أثراً لجو الخصومة المألوف وأدهشه مظهر أمه: فقد تعود أن يراها شامخة الصدر، منصوبة القامة، في مظهر الجلال والعظمة، فإذا بها الآن ذابلة كسيرة، ذات خدين مسترخيين رماديين، ومع ذلك فلم يحس بشفقة عليها، بل شعر بملل بسبب الضربة التي كان يعد نفسه لتصويبها إليها. وكان يخشى أن تتلقى هذه الضربة بالصباح والعويل، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، فقد تلقتها ببرود لم يكن يتوقعه. فما رآته في ذلك اليوم قد نبهها الى هذه الضربة، فلم تعبأ بحضور ماري دي لادوس، تطلب منها ملاءتين لإعداد سرير في غرفة الراحلة المسكينة. فأعطت مفتاح الصيوان للخادمة وأخذت شمعتها، وقدر فرنان أنها ستتحدها في صمت. لا فلم تعد تتشدد في شيء، لم تأخذها دهشة ما، ولم تحرك ساكناً حين رآته يمر في طريقه الى غرفة العدو بامتعته وأسلحته؛ ذلك أنها ايقنت بالخيانة في قلب ابنتها.

وما إن انسحبت الى غرفتها حتى وجدت سكوتاً غير مألوف قد بث فيها الرعب، فخيل إليها أنها تسمع ارتجاف المنزل للمرة الأولى، وتذكرت أن زوجها قد بناه أمام محطة سكة الحديد بحكم طبيعة عمله

في تجارة الأخشاب المستوردة من الشمال الى المدينة. فلما أصبحت أرملة، كان غطيط ابنها في نومه سلوتها في الحياة وحناءاً بينها وبين أخطار الظلام. وما كان وقع الخطوات الخافتة، ولا هدير الجسر الحديدي فوق النهر، ولا الأبن المدوي حين يعتدل الليل والنهار، ولا شدو البلبل بين أشجار السوسن بالذي يفوق هذه الأنفاس الراقدة. وقد اكتسب فرنان، مما أمضاه من ساعات معدودة، قريباً من ماتيلد، روحاً جديدة وأضاف قيمة الى وجوده. والآن في هذا المساء أحست بأنها غريبة بين جدران منزلها التي تضمها منذ حوالي خمسين عاماً! ومر قطار قبل قطار آخر الليل فهز زجاج النوافذ، ثم عبرت قاطرات البضاعة متتابعة لا تحدث صغيراً، وإنما يختلط هديرها بأحلام النائمين، أما المرأة العجوز فقد ظلت تقاسي النوم في المضيق الذي بين السرير والحائط، ملصقة شفتيها بالجدار، ومن ورائه ولدها مستلقياً على فراشه، لم يغط في نومه بعد. «استديري على الجانب الآخر وأغمضي عينيك، واجعلي الفضاء بين جنبيك...» وفجأة انتفضت قائلة:

- إن شخصاً يمشي في الحديقة

لا أحد... فقد هزت الريح أوراق الشجر هزاً رقيقاً فتوهمت أنه صوت أقدام، لهذا أشعلت فيلستيه ثقاباً وعادت لاتسمع شيئاً، فأطفأته، ولكنها تصورت أن المنزل الفسيح لا يحميه شيء في وسط الظلام الدامس؛ فشرفاته خالية من الشيش. وخُيل إليها أن وجهاً مائلاً ينظر من زجاج النافذة لاصقاً به، وأن يداً تشقه بماسة صامتة. وكيف تنال موافقة فرنان على وضع الشيش، وهى التي رفضت أن يسمح بوضعه نكاية بماتيلد؟ خير سبيل أن تذكره بأمنية الراحلة، فذلك أدعى

الى قضاء الحاجة وتحقيقها ، وأحست فيلستيه أن ما كانت تحس به من ضيق في هذه الليلة إنما هو لون من ألوان العذاب التي كانت تتجرعها الفتاة في كل يوم، فيالها من صدمة واتفاق! وهزت العجوز كتفيها ، وزجرت نفسها ، واستعادت حوادث الخادمات منذ القدم من أعماق ذاكرتها ، وطغت على طفولتها الخائفة. لا! لا! فإن الموتى لا ينتقمون . وها هي ذي ماتيلد تزداد عنفاً في كل لحظة في مقبرتها الثالثة على اليسار، المجاورة للحائط الخلفي، إلا أن فيلستيه كانت تسائل شبح الموت بعينيها كأنها قد اهتدت أخيراً الى عالم مجهول زاهر بالأرواح بعيد عن المظاهر. وعادوتها واقعبتها فاغتصبت ضحكة، فما هي مؤمنة إلا بما تلمسه: فقد كانت ولادتها في زمن لم تتصل فيه بلاد اللاند بباقي العالم إلا بطرق رملية. وحدث أن طرد عصر الإرهاب القساوسة من هذه البلاد، وتناولت أم فيلستيه قربانها المقدس الأول يوم زواجها. وكان أطفال هذه البلاد، حتى مستهل القرن الأخير، لا يعبدون إلا الشمس القاسية، ولا يعرفون إلا القوة الخارقة لنار الإله «پنياداس» - ذلك الإله السريع الذي يعدو فلا يدركه أحد تاركاً خلفه عدداً عظيماً من المشاغل.

تأخرت قليلاً في نومها إذ أنها لم تظفر بالنوم إلا عند الفجر. ونزلت فرأت على الصندوق الخشبي عصا فرنان وقبعته، فلماذا لم يخرج؟ أكدت لها ماري دي لادوس أنه لا يزال نائماً. وشخصت السيدة الى النوافذ فرأتها مغلقة، فثبتت بصرها عليها وهي متألمة كما لو كانت الراحلة حية تضم فرنان بين ذراعيها. وهمست قائلة: «أنا مجنونة»، فما كانت الأم تحس بمثل هذا الشعور يوم أن كانت ماتيلد على قيد الحياة.

ورددت في نفسها: «أنت تعرفين جيداً أنها ليست هنا...» هي ليست هنا، ولكن ذلك لم يمكنها من أن تستأثر في فراشها بالشخص الذي هرب منها وهي على قيد الحياة. ولم تذكر فيلستيه أنها تأملت يوماً بمثل هذه الحالة المريرة اليائسة، حتى في اليوم التالي من الزواج، كانت تحس بأنها مؤمنة بانتصارها. فقد حدث بعد أسبوع من زواجهما وكانا يتنزهان في بيارتس أن أرسل إليها خطاباً أثلج صدرها وملاًها غبطة حتى إنها أعادت قراءته مرات كثيرة، فحفظت منه أجمل عباراته: «... أنت على حق؛ فالألم وحدها هي التي تستطيع أن تفهم أي نوع من الرجال أنا، وكل النساء الأخريات غريبات عن نفسي، يعتقدن أنهن يحبيننا ولا يفكرن إلا في أنفسهن، فلذاتهن أولاً ثم سلامتنا. ويجدن من الصواب أن ننفق بغير حساب في سبيل أحلام سخيصة. وأكثرهن إلحاحاً هن اللاتي كن يمتن جوعاً قبل الزواج. هل تذكرين هذا الفندق القريب من محطة سكة حديد بايون الذي لم يكن فخماً جداً ولكنه صادف هوى في نفوسنا؟ لم ترض ماتيلد أن تقيم فيه؛ لأنها أدّعت أنها رأت فيه بقعة مبيتة، وأن الدلو كان كربه الرائحة، فاضطرت إلى الإقامة في إحدى الفنادق البغيضة لدي، فهناك جم غفير من الخدم لا يحبون أن يقضوا خدمة دون نفحة، ويهزون أكتافهم مهما أخذوا من النفحات ولو كان عشرين سنتيماً؛ وحسبتي ماتيلد بخيلاً. وهي امرأة لاتتحدث إلا عن نفسها فلا تعنى بأي شيء يتعلق بي، وأنا الذي كنت أشتكي من العناية الفائقة التي كنت تحيطنيني بها! أؤكد لك أنها تسخر من حالتي الصحية، ولم يكن لها يد في الحفاظ على صحتي وعدم إصابتي بمرض، فهي تُحدث في عربات القطار تيارات هواء قاتلة، وهي تصحو في

الليل أثناء نومي لتفتح النافذة. ولا داعي للقول إن آلام كتفى قد تنبّهت. إنها دائبة على السخرية، تنتقد عادات أسرتنا وترغم أن عدم الاغتسال فى المساء شيء قذر - وهي لاتدري أن الاغتسال لابوازي تعب، مادام سيعاد فى الصباح التالي. هذا قليل من كثير أتحمّله ولا أستطيع أن أعترف لك به. لاتخافي شيئاً يأمأه، فابنك يؤدى واجبه حتى النهاية».

وفى صباح يوم قائظ، يشبه أيام هذا الصيف، وصل هذا الخطاب ليغمر الأم، هذه الذئبة الهرمة، بالقلق والسعادة. يالها من ذكرى جميلة، ذكرى الأسابيع التالية لذلك! لاحظت ألف إشارة تدل على انفصال يزيد يوماً بعد يوم. وحدث أن قال فرنان لأمه، فى اليوم التالي لليلة لاتزال أسرارها غامضة، وهو شاحب اللون: «ستنصين سريري فى غرفتي القديمة...» كانت تتوقع هذه الفرحة وإن لم تكن بهذه السرعة. وأصبحت ترى نفسها فى غرفة مُهوأة جالسةً على رأس سرير طفل ضيق. وقد فرشت ماري دي لادوس عليه الملاءات ذات رائحة النعناع والماء الجارى. أما اليوم... فوا أسفاه! لقد بددت الشمس الضباب، وخلت الحديقة من العصافير اللهم إلا من صرصور. وانصفت ضلفة النافذة وكانت تغلقها ماري دي لادوس. وهبت ريح الجنوب الملتهبة وهي تحمل رائحة الصنوبر المحرق، ولم يبق مناص من أن تحمر السماء وتكفهر بالدخان فى منطقة اللاند. وباتت الأرض المعذبة، من لحظة الى أخرى، تزداد عطشاً، والكلب پليو يفحص بقدميه وأنفه ليحفر حفرة يبترد فيها. وسمعت فيلستيه طنين دمها فى أذنيها كما حدث لها فى اليوم السابق، وتوالت ضرباته، وهي ساكنة، فربما كانت حركة منها إشارة الى الموت. وهممت

كالمجنونة بكلمات، فرفع پليو أذنيه وظن أنها تحادثه وتصورت أن جسد ابنها ملقى على الفراش الذي كانت عليه جثة ماتيلد فانتفضت فرعة، ودلفت الى السلم الملتهب محاطة برائحة زهرة الغرانيوم وأصوات الضُّباب العاوية. فلما وصلت الى الدرجة الأولى من السلم انفتحت الشرفة، وظهر فرنان كازيناف يقول لها:

- المائدة أعدت يا أماء.

كان ما يزال على قيد الحياة واقفاً تحت الشمس المحرقة تخفي واجهة قبعته المنخفضة. فشعرت العجوز، على ثقلها، كم هي خفيفة وهي تصعد الى المحبوب الجامد الذي لا يتحرك! إنها فرحة قصيرة: ونظرت إليه وهو جد قريب منها فرفع قبعته لكي يحييها، فكتمت صيحة حين رأت ما أصاب وجهه من تلف. بأية قوة تجذبه إليها الراحلة! شفتاه أشد بياضاً مما لو كان شرب خلاً. بصره مغشى بالدم كعيني كلب مُسنّ... ونظر هو أيضاً الى والدته وهو جالس على المائدة. ولاشك أن كلا منهما فزع من الآخر حين جلسا يتناولان وجبة الغداء وجهاً لوجه، وظلت لاتغادره نظراتها بينما ثاب هو الى حالته ينشد رؤيةً ماثلة في دخيلة نفسه لامنصرف له عنها. وصاحت ماري دي لادوس: لقد اشتعلت النار في جهة لاندبراس ولكن ناقوس الكنيسة لم يدق لأنها حدثت في مكان ناءٍ عن القرية، - وما كان أي ناقوس بقادر على أن ينزع فرنان من ذكرى ليلته الأولى في الغرفة التي ماتت فيها ماتيلد.

٩

قضى في بادئ الأمر فترة من الزمن أحس فيها بحلاوة الراحة، تحت
أجنحة الستائر البيضاء المبهمة المثبتة بسهم من الخشب. كانت النوافذ
مفتوحة، والليل يتنفس فيها كما يتنفس الكائن الحي. لاشيء يذكر الآن
بالسهر حول الميتة ولا بهذا الطائر الخرافي. ولكنه أصبح يحس وهو
مستلق على ظهره، وبصره مغلق، ويداه قابضتان على الملاءة، ورجلاه
ممدتان كما كانت ماتيلد في حالة موتها، أصبح يحس بأنه يتدفق بين
لجتين نحو هاوية من الراحة لانهاية لها. فهي ماثلة حياله، لا في الغرفة
ولكن في قرارة نفسه، ممتزجة بلحمه، لحمه اليقظ الذي يذكره بليالي
العرس. وتنبيه تفكيره شيئاً فشيئاً وانحصر في لحظة من الزمن شعر فيها
بجسم ماتيلد الخائف لاصقاً به. وبث مارآه في نفسه الشفقة والسخرية
معاً، فهز رأسه وتنهد بصوت جهير. إنه، كسائر أسرته، بل كأكثر
الرجال، لا بد أن يموت دون أن يعرف ماهو الحب. ولقد لعب القدر هذه
اللعبة الغريبة بأن أيقظ في هذا الرجل الهرم مسارب دفينية في أعماق
سحيقة! وها هو ذا الينبوع المليء بالطين يفسح فيه طريقاً بطيئاً. لم يكن
يعرف ماهو الحب فقد عاش آباؤه عشاقاً غيورين لأشجار الصنوبر
والكروم. وأراد أبوه، نوما كازيناف، أن توضع على قبره قطعة من الطين

الخصب لأرض كان يؤثرها على سائر أملاكه. وعندما فكر في أن يخطب امرأة، سأل صديقاً له كيف يستغلها. وكان الزواج يضمن لكل هؤلاء الغابرين استمرار الملكية فضلاً عن تنمية الثروة، وقاوموا الموت الذي لامفر منه بفكرة تخليد الأسرة، فكان الولد الواحد منهم يكفى دائماً لبقاء خيط دفيق من الحياة، يحمل التركة التي تزيد شيئاً فشيئاً حتى نهاية الوجود بما يفيد الزوج من أموال الزوجة والورثة. ولم تفلح أية عاطفة في أية لحظة من حياة هذه الأسرة في أن تصرفهم عن هذا المجرى الهائل الجارف. وكانت النساء جميعاً، سواء أكن من آل بيلوير أم من آل كازينايف من اللاتى يهمسن للزوج: «أسرع». ومع ذلك فلا بد من أن تظهر يوماً ما على حلقة من السلسلة الحية نقطة من الصدأ ظاهرة تعمل على قرضها، وتقطع بين ماضيها وحاضرها. فويل لمن يخلف بعد! يالها من قلوب شقية لم تولد بعد! ماذا ترثون مني أيها الأطفال! فما أقسى ما أظهره فرنان لأمه من خصومة صامتة! ومع ذلك فإنها أمه التي ورث عنها شعلة الحياة ونبراس الوجود؛ ولكن في الوقت نفسه كان للأمم غير حنون تحول دون تقوية هذه النار المجهولة وتنميتها في نفسه؛ جعلته أمه عاجزاً حتى لاتفقد، ولم تكن تسيطر عليه إلا لأنه قد تجرد من كل شيء وربته على أن يحذر من المرأة وأن يزدريها. فقد كان حتى الخامسة عشرة من عمره لايعرف إلا نوعين من النساء: «امرأة تكبكك بالأغلال» و «أخرى نسب لك الأمراض». غير أن هذه العقبات لا تقف بطبيعة الحال في سبيل شخص يريد الحب، إلا أننا لاننسى أن فرنان من ذرية أولئك الفلاحين الذبن يشاهدون في الطرقات، في أمسيات أيام السوق، أذرعهم مسترخية، وأيديهم خالية، سائرين كالموك في منتصف الطريق،

تتبعهم نساؤهم متعبات، يحملن سلالاً، تنوء الحمير عن حملها، ثم نما
كبرياء فرنان نمواً مستمراً فغدا من هؤلاء الشبان الذين يؤمنون إن من
الصعب أن يظفر المرء بإعجاب المرأة إلا إذا قدم لها ثمناً، «وإن من
تخضع لهم النساء دون مقابل إنما ينفقون في سبيلهن أكثر من غيرهم،
أما أنا فيأني أقدم لها الثمن ولا داعي للورد والهدايا والتكاليف
الجوفاء».

غير أنه الآن، يستلقي في الدجى على سرير ماتيلدا، ويشاهد نهراً
رائعاً محرقاً في ممر الجنوب ويرى، من وراء شجيرات الحناء الطنانة
بأسراب النحل، هذا الجسد الغض يلوح بينها... ألا تعتقد، إن كان لابد
أن تتسلح ضد أمك، أنك تجرأت على تفريق الغصون وجذب هذه
الفريسة الجسدية الى نفسك وهي تفوح برائحة العسل؟ حقاً كان جوع
التشفي يتيروك قبل كل شيء؛ ولكن هذا الجوع قد أخفى جوعاً دفيناً،
وإنك لتهتدي إليه في الوقت الذي لا يسمح بإشباعه حين تكون فريسة
اللحم المعطرة قد ذابت وأصبحت ذلك الشيء البشع الذي لا يغدو له اسم
ولا رسم...

ونفض وطاف في الغرفة عاري القدمين يتعثر بالأثاث وقال بصوت
عال: «إنها كانت تحبني لأنني كنت أعذبها...» وهز رأسه الضخم
وزمجر قائلاً: «لا. لا ليس هذا بحب...» وتقبض وجهه يريد أن يبكي
كما كان يصنع في طفولته. وجمد لحظة وقرض أظفاره وقال: «رجل
آخر؟ آخر؟...» ولم تأخذه الغيرة حتى في هذه الساعة؛ لأن كبرياءه
المتناهية كانت تحميه. ماذا؟ رجل آخر في حياة ماتيلدا؟ كان على وشك
أن يتألم ولكنه تذكر ما كانت تردده أمه مائة مرة: «هي أمينة لانستطيع

أن ننزع هذه الصفة عنها، هي لا تملك إلا هذه الصفة، وتملكها فعلاً...» وأردفت قائلة وهي تنوه بالسيدة كوستو التي أنجبت ماتيلد: «في هذه المرة فقط لا يمكن أن يُقال إن الكلب الأمين يُطرد من فصيلته». فلم يكن لعلم فرنان أن هذه العجوز، عندما امتدحت كُنَّتها كانت تشير الى يوم تناولها الغداء عند بعض نساء أسرة ميرليه عقب العودة من حفلة عرس. وكان يجلس على شمال ماتيلد موظف في الكلية قيل إنه شاعر. وجلس يُدلي بنصائح الى إحدى آنسات ميرليه وكانت شاعرة أيضاً. وبدأ لفيلستيه كازيناڤ أن ماتيلد، في أثناء تناول الطعام، تتشرب كلمات هذا الفتى الأسمر الجميل. ولا يعلم إلا الله ماذا كان يعتمل في نفس ماتيلد في ذلك الوقت من تراخ وتهاون أو عنصر خفي أو ميل غير محسوس، نحو هذا الرجل الذي أخذ يخفض من صوته حين أنشد بيتاً من الشعر في جلبه الوجبة المنفضة. وتضاحك بعض سكان اللاند، فشوهت الضحكات وجوههم. أما الشاعر فلا شك أنه كان يحلم في ذلك الوقت بقصة غرام كالتى يعرفها في بطون الكتب... ولكنه بعد أن قدمت القهوة، ألحت عليه فيلستيه، في غباء، أن يسمعها قصيدة. فرفض، فرجته أن يقبل، على الأقل، كتابة بعض أبيات في مفكرة كانت كنتها تنقل فيها قطعاً مختارة من الشعر. ومنذ ذلك الوقت تنبهت ماتيلد: إذ لم تكن تعرف فيلستيه كيف تخفي تدبيرها وكم كانت كنتها تفخر بأنها «تسمع دائماً وقع قيقابها الضخم وهي مقبله من بعيد». فلم يعد ينال منها الموظف لحظة أو التفاته. ولما حضر لزيارة آل كازيناڤ، رفضت ماتيلد أن تنزل الى غرفة الاستقبال، مما جعل فرنان ينام نومة هادئة، فإن الفتاة البائسة لم تكن تعرف كيف تكسب أرقام النجاح أو

تزيح عن نفسها الضربات الموجهة إليها، ولم تخن زوجها في سرها وإعلانها.

لم يطل التفكير في مثل هذا الأمر، ونظر، فرأى حياته أمام بصره صحراء جرداء، فكيف استطاع أن يعبر هذه الرمال الفسيحة من غير أن يموت عطشاً؟ ولكنه ما كان بحس بمثل هذا العطش خلال السنين الغابرة، وها هو ذا الآن يشعر بالعذاب، وقد ماتت ماتيلد قبل أن يعرف أنها كانت ظمأى، ماتت ولكنه لم يمت. وخطر له أن نبعا جف، ولكن آفاً من الينابيع المجهولة منبعثة متدفقة، فما أيسر أن يحل شيء محل ماتيلد. لأول مرة يذوق فرنان طعم الحب، لهذا فهو ثائر على هذا السراب الذي يغمر بالظلمات الكون بأسره حتى يغمر بالضوء شخصاً بمفرده. إنه طفل عجوز فاسد تعود أن يستغل كل شيء في لذته، ويستفيد من كل شيء في حياته، لهذا ردد في نفسه أن ماتيلد كانت فرصة سنحت لاكتشافه اللذيد، فلماذا لا يستفيد به مع امرأة أخرى...؟ وأية أخرى؟ واستعرض في مسخيلته تلك المناشف وهي تجف على نافذة تطل على شارع هجوري... أية أخرى؟ ففى عالم دقيق من حياته المنحطة، في هذا الشرك المنسوب، في هذا النسيج اللزج الذي نصبته أمه من حوله مدة نصف قرن لكي تحميه، وهو كالذبابة الكبيرة المصيدة، يتخبط فيها ويتقيد بها، في هذا كله أشعل فرنان ثقاباً وتأمل نفسه وهو يرفع السمعة أمام المرأة. حقاً إن العبادة تخلق الصنم. ولعل ماتيلد، ماتيلد بمفردها هي التي كانت تستطيع أن تتعلق بهذا الإله الهرم الغضوب الذي خلقته أربعون عاماً من عبادة الأم. إذن لقد سبق السيف العذل! واقترب من النافذة وشم رائحة الأرض المقهورة، فعرف أن بعض قطرات من المطر

سقطت على الأرض، فانبطح على أرض الغرفة وثنى ذراعيه تحت وجهه، وظل كذلك حتى ألجأه التعب المرير الى الارتماء على السرير. وأخيراً أنقذه النوم وتنبه أول سرب من العصافير فلم يوقظه، وظل فى نوم عميق كأنه جثة هامدة.

١٥

في وجبة الغداء التي تلت هذا المساء، جلست فيلستيه كازينا في أمام ولدها الشيخ، وأصبحت، لأول مرة، لاتفكر فيه على أنه ملكية استولت عليها امرأة أخرى، وهي تجدد في رده إليها مهما كلفها الأمر. لا أن جيبها قد بدأ يشبه حب سائر الأمهات، الذي لا يصر على شيء بدلاً من الذي يعطيه. هذه العجوز الصامتة تجبر نفسها على الأكل، وتعصف في قلبها العاطفة المنهزمة التي قبلت أخيراً أن تتخلى عن حيازتها المقدسة: ليكن سعيداً قبل كل شيء! ولو كان في يدها السلطان نادى ماتيلد من شاطئ الموتى، فإن نشوة التنازل قد كشفت لحبها مظهراً فتنها وأعجبها. تلك غريزة الحب الذي لا يريد أن يفنى. عندما تزول أرضه من تحت قدميه، وتنهدم سماؤه المألوفة لديه، فسرعان ما يخترع الحب سماءً أخرى وأرضاً أخرى. تلك ساعة يهمس فيها المبعض للذي لم يعد يحبه: «لن تراني بعد، لن أثقل عليك، سأعيش في ظلك، وسأحوطك بحماية رفيقة لاثمس بها». هكذا كانت فيلستيه كازينا عند نشوة انهرامها تلقي الى عاطفتها النهمة بالتنازل عن هذا اللون من الحب الذي يدها بالغذاء. وشقت الأم السكون بنغمة توسل قائلة:

- أنت لاتأكل يا عزيزي. يجب أن تأكل.

فأجابها دون أن يرفع رأسه:

- وأنت لاتأكلين.

وأضاف بطبيعة تربيته المدللة:

- لا أستطيع أن أكل وحيداً حيال شخص ينظر إليّ.

- لكن... نعم ياعزيزي: إنني أشعر بجوع شديد.

وبالرغم من أن حلقها كان منقبضاً أرادت ابتلاع لقمة. وبعد أن

ترك المائدة، ونأى متجهاً نحو جناح العدو، نادته قائلة:

- أريد أن أحدثك يا طفلي.

فتردد لحظة ثم تبعها الى المكتب ساخطاً وقال لها:

- ماذا تريد مني؟

ووربت ضلف النافذة ونظرت، فلم تتمالك أن تهمس إليه:

- إنني قلقة من أجلك، فالحياة التي تسير فيها لاتفيدك شيئاً.

إنك كما تقول ماري دي لادوس «تأكل من دمك». فلا بد أن تجد

ما يلهيك... أن تقابل هؤلاء القوم.. أنت في قوة سنك ونحن على بضعة

أشهر من انتخابات البلدية.

فزمجر قائلاً إن كل شيء قد انتهى منذ زمن بعيد كما كانت تحب.

وظلت صامته، فسألها ما إذا كان هذا كل ماتريد أن تقوله، فأمسكت

بذراعه وقالت بحرارة:

- لا أريد أن تلقي بنفسك الى التهلكة. لن أتركك تموت...

- كما فعلت بالأخرى؟

فصاحت أن لاشأن لها بموتها، ولا شيء كان يدل على هذا الالتهاب.

ولماذا لانصدق كلام الطبيب دلوك أن لاداعي للسهر عليها؟

- ومن جهة أخرى فقد ذهبت لرؤيتها في تلك الليلة.
- أعلم ذلك.

- وقرعت بابها وسألتها هل هي متعبة، فأجابتنني بأنها ليست في حاجة الى شيء، أضف الى ذلك أن فرصة علاجها لم تكن قد فاتت: فقلبها هو الذي خانها كما قال دلوک مائة مرة. وما كنت أنت ولا أنا بقادرين على أن نصنع شيئاً من أجلها. كان من الممكن أن تعيش عدة أيام أخرى، لو أنها كانت مصابة بالالتهاب وحده، ولكن زوجتك كانت مريضة بالقلب.

أرادت أن تقنع ولدها وتقنع نفسها كذلك، وهي تذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ثم رفعت صوتها كأنها تريد أن يسمعها شخص غير مرئي بسترق السمع. ونأى عن الباب قليلاً وهي تتحدث، ثم غطى وجهه بيديه وصاح قائلاً:

- أنت قتلتها، أنت تسببت في قتلها يوماً بعد يوم.
فاحتجت غاضبة وقالت:

- هذا غير صحيح، كنت أدافع عن نفسي وكنت على حق. وعلى كل فقد كنا شخصين اثنين!
- ماذا تريدین قوله؟

- من منا نحن الاثنين أساء إليها إساءة أشد؟ أجب!
ومرق فيها الغضب كشعلة من النار، فاحترق كل ما كانت تحمناه منذ هنيئة من التنازل والتسامح. ولم يعد هناك مجال للتضحية، وأصبح همها أن تنتصر على الولد الشائر كما كانت تفعل معه من قبل، فظلت تصيح:

- إذن يابني فلتعلم أن أمك قد احتملتك كثيراً، وها هي ذي خمسون سنة ألأزمك فيها ملازمة الظل. إنني أمك، ومع ذلك فإنني أسائل نفسي كيف لا أزال على قيد الحياة. ولما أن جاءت الأخرى إليك. آه! البائسة! كنت على يقين أنها لن تبقى معك طويلاً. إنك لم تكمل معها عاماً...

- اسكتي! لاتزيدي كلمة

وتراجعت حيال وجهه الأغبر وبده المرتجفة المرفوعة. وظل يقترب منها فاستندت على الحائط وردت على المجنون بابتسامة، كأنها تتحدها: «اضرب في البطن».

ولكنه توقف فزعاً مما كان على وشك أن يحدث. وأفاق فنظر الى العجوز وهي مبهورة الأنفاس، أمه التي خرج منها وترى في أحضانها. ونظر إليها برهة، وانبشق حنان الطفولة الخفي في صيحة بائسة كأنه يحطم غلافاً متحجراً.

- أماء!

وبما أنها كانت قد انهارت فوق الأريكة، فقد أسند رأسه على كتفها الظاهر فعاد الى ملجئه الحي يكمن فيه، فما له من ملجأ آخر في الوجود يلتجئ إليه منه! مثله كمثل رجل يئس من الحياة فأراد أن بهجر الأرض فلم يجد مهرباً منها إلا إليها فاستلقى عليها، وחדش بها وجهه ونسم من جوفها الظلام. هكذا كان هذا الرجل وهو يضم الى آخر طاقة فيه أمه العجوز. ولبثت هي خائرة القوى، محطمة تتذوق سعادة هذه اللحظة وجفونها مغمضة، وهي تعلم أنه سيشوب عاجلاً الى نفسه وينصرف عن حنانه. وأيقنت أن ضعفه الوقتي سيكون لها مصدر حزن

جديد. آه، كم تمنيت أن تكون هذه اللحظة أبدية! غير أن ذراعها تتخدر تحت عبء رأسه المتثاقل. ولكن أليست هي أمه التي سهرت عليه وتعذبت من أجله في ليالي الشتاء القوارس أيام كان لا يستطيع أن ينام إلا وهو ممسك بيدها، فتظل ساعات طوالاً تبسط إليه ذراعها، خارج السرير، وتترك يدها لهذا الجلال الصغير، ولا تغادر شفتها جبهة ولدها الشيخ وهي تشمه كما تفعل السائمة. لا. لا لن تثيره مرة أخرى. هاهي ذي الآن تطرب لهذه السماء الجديدة التي لمحتها. أنها لا تطلب شيئاً أكثر من ولدها الموجود بين يديها. إنها ستعيد إليه لذة الحياة، وستلده مرة أخرى. كذلك كانت تسلم نفسها الى الخداع بأن حبيبها يستطيع مثلها محاولة أن يولد من جديد. ولم تكن تفهم أن هدف عاطفتها الخاصة كان هنا، حياً، ماثلاً بين يديها، لاصقاً بركبتها، ولم تكن تطلب أكثر منه لكي تتحدى به القدر. أما هو، ذلك الولد الفاسد، فقد كان في خلال نصف قرن يحطم اللعبة بعد الأخرى. وفقد اللعبة الأخيرة في اللحظة التي اكتشف فيها أن ثمنها كان غالياً لا يقدر. فانظري إليه، أيتها المرأة البائسة، ها هو ذا ينهض فيجفف بظهر يده جبينه الذي يتصبب عرقاً، ثم يتباعد فتسمعين خطواته يتلاشى وقعها في المنزل الهامد.

﴿١١﴾

وتلت ذلك فترة تراخٍ استمرت بضعة أيام، همد فيها كل شيء، حتى السماء توقفت عن نشاطها، فهبت عواصف طوال الأسبوع، على الريف المهجور (وكان هذا فصل تعرض الشمس لأشجار الكروم). وكأن القاطرات قد أصابها من هذا الخمول شيء، فغدت تشق طريقاً متعباً في أيام القيظ، فقد قيل إن الحرارة مددت قضيماً بين بلدتي لاريول وطونيا. وأخيراً، في ذات ليلة، تنبّهت الأم وابنتها إلى تهامس أوراق الشجر، وقد ارتشفت بلهفة أول الغيث حتى أن أكثر من ساعة قد مضى قبل أن يس المطر وجه الأرض المحترق مساً يشق الأرض ويصعد ريحها... ريح من الرغبة، لم تبلغ حد الإشباع بعد، إلا أنها قد استحالت بهجة وسروراً. وفي المناطق النارية تتفق أهواء الرجال مع قوة السماء، وقد تهدأ معها. ففي خلال وجبات الطعام لم يكن فرنان معرضاً عن أمه إعراض المبعض بل كان يصطنع التوقير والعناية، ويبذل وهو على المائدة كل رعاية جدية بسيدة عجوز، فلا يتركها إلا بعد شرب القهوة، فصارت من شدة حذرهما واحتراسهما لا تحاول الإمعان في هذا الفوز الذي أحرزته والرضا الذي نالته، ورددت في نفسها: «سأنقذه...» ولكن وا أسفاه! فمهما كانت معاملته لها بالحسنى، فإن جرحه من أجل عدوتها لا يزال ناغلاً يؤلمه.

كان يحيط بهذه الرواية ذات الفصول، أشجار باسقات، كالخزامى،
والحور وجوز الهند والجنار والقرو وقد تمايلت أوراقها المثقلة بالمطر، تحت
سماء لينة. وفي هذه الأشجار، استطاع الابن والأم أن يحتميا من
النظرات الأجنبية. وقد جرت العادة أن كل ما يقال عن القرية وعن
أقاربها لا يكون صحيحاً إلا في محيط الفقراء الذين يعيشون، أبوابهم
متلاصقة وحيطانهم متجاورة. أما هذه الممتلكات المحاطة بالأسوار،
المحصرة بالأشجار، فلا شيء أقل منها تعرضاً للأنظار وأحسن ملاءمة
للألغاز، الى حد أنه يبدو أن الذين يعيشون فيها لا صلة لهم بالخارج،
اللهم إلا ما كان يربط بعضهم ببعض أو يربطهم بالسماء. أما في المدينة
فقد اعتقد أهلها أن سلوك آل كازيناف سليم لاغبار عليه: كلما ضعف
تأثرنا بفقد فرد من الأسرة ازدادت مظاهر حزننا الخارجية. وهكذا كان
يؤول اعتكاف الأم وولدها في المنزل.

في خلال شهر سبتمبر الزاخر بالمطر، خرج فرنان ذات صباح وعلى
كتفيه حرملة، وعلى رأسه قلنسوة تغطي شطراً من وجهه، وأخذ الطريق
الضيقة التي تفصل الحديقة عن سكة حديد بوردو - ست. فقرأ على
عربات البضاعة المخزونة في ذلك المكان: «رجال ٣٨ - ٤٠». ولم
يدرك ماتنطوي عليه هذه الكتابة من فأل مخيف. ثم عاد الى منزله
فتركته أمه حتى يقترب منها، وتفرست في وجهه المستغلق، ولاحظت
مظهر تراخٍ وهذوٍ يزداد يوماً بعد يوم، فاعتقدت في بادئ الأمر أنه
يتظاهر بذلك. وهل كان في استطاعته أن يحتفظ بهذا التغيير ذلك
الوقت الطويل؟ لا بد أن سلوة قد أتت إليه من جهة أخرى - سلوة
مجهولة. إن صحته قد تحسنت مرة أخرى دون أن يكون لها يد في ذلك

التحسن، وهي التي طردت فيما مضى الخادمة؟ لأنها زعمت إنقاذ فرنان من الحمى القرمزية التي كان قد أصيب بها. واليوم تنقذه الميتة ولا سلطان للأم على طردها. وهكذا انهار عمادها الأخير: فهي لم تعد عليه بنفع، ولم تكسبه خيراً، ولم تذكر، منذ بدء طفولته التي مسختها الأهواء، أنه ابتسم كالطفل، يمثل هذه الابتسامة المبهمة الوديدة. وكم رددت الأم خلال خمسين عاماً: ماذا يحدث لك بدوني! من حسن حظك أني على قيد الحياة؛ فإذا ما فقدتني! « وأسفاً! لقد أصبحت الآن أمام عينيه شيئاً لا قيمة له، ولا غناء فيه، وقد استطاع بدونها أو قل بالرغم منها، أن يستعيد هدوءه. إن العجائز مؤمنات بحاجتنا إليهن، وأن الله، لذلك، قد أطال في أعمارهن. فمنهن من قوت يأساً من كونها أصبحت لا تجدي فتيلاً، ومنهن من تترد إلى الحياة، بعد أن أوشكت على الموت؛ لأن ابنة أرملة أو أطفالاً يتامى يصبحون بالنجدة والمعونة. وهذه فيلستيه قد عجزت عن القيام بخدمة لولدها، وهل استطاعت إسعاده حين كانت تسيطر عليه؟ وناوأها سكون الليل فلم تستطع أن تنام، وأبرمها وجود الغرفة الواقعة خلف الجدار خالية خاوية لا ينام فيها الولد العزيز. وخطر لها: «إن أية حياة أخرى ستقضي عليه، وسيموت إذا ما استسلم إلى نفسه...» ما الذي كان يدفعها إلى هذا القول؟ الهواء البعيد يعدو في منطقة اللاند، ويصل إلى الضفاف النائية المجهولة حيث كانت أبعد أشجار الصنوبر تنأى عن أعناب سوتيرن المقدسة. وهناك توقفت الريح، لاتعرف لها وجهة، ثم انقضت على أشجار الحديقة فجأة، فاهتزت كلها مرةً واحدة.

وعلى كل، فلم يبق لها إلا عمل أخير تسديه إلى الحبيب. إن الميتة

التي كانت سلوته قد أثرت في عقله، لا في جسمه المعضب. ذلك الجسم الذي هو بضعة من أمه وكان ملكاً لها، فيجب أن تُعنى به. وقد استشارت الطبيب دلوك خفية بعد أن رفض فرنان أن يقابله، وأشار الطبيب أن يتخلى فرنان على نفوره من الطعام بالإكثار من تعاطي أطعمة مشبعة بمقادير من الدم. وحرصت فيلستيه منذ ذلك الحين على أن تصبحه معها الى المائدة حتى تشجعه على الأكل. وبالرغم من أن حالة شرايينها كانت تلزمها بنظام خاص للأكل إلا أنها كانت تملأ جوفها لحوماً حمراء. وكانت في كل وجبة تدور هذه المناقشة:

- لم تأكل يا عزيزي.

- وأنت أيضاً.

- ولكن ألا تراني آكل؟ خذ قطعة من اللحم.

- سأخذ منها إذا أخذت مرة أخرى.

ليس الاستشهاد قاصراً على التضحية في سبيل الرفعة فحسب،

بل قد يضحي المرء بحياته بأن يختار لنفسه أخطأ أنواع الموت.

لم تتعود أن تعيش وحيدة: طافت بعد الظهر في المطبخ ولم تمنع

نفسها من أن تبوح الى ماري دي لادوس.

- لم يكن يطيقها وهي على قيد الحياة، فلا معنى لأن يحزن عليها

بعد الموت.

- حقاً ياسيدتي!

- ويتحدث عنها أمامي بقصد تعذيبي. ولقد أخطأت حين تركته

يعرف أنني أضيق بذلك الحديث ذرعاً وأتمزق منه غضباً.

- حقاً ياسيدتي!

كانت ماري دي لادوس تطحن البن وعيناها كعيني كلبة تبسط ذراعيها ولا تغادر بصر سيدتها خوفاً من أن تتأخر عن إظهار الاستحسان لحديثها. فكانت ابتسامة الطاعة على وجهها دائماً، وجه العبيد الأرقاء. ومع ذلك فقد ظلت خرساء لا تتكلم حين قالت لها السيدة:

- إذا مات المرء استغرق زمناً طويلاً في موته، ولكن كما يقال، سرعان ما يذهب الموتى.

سكتت ماري دي لادوس، كأنها لا توافق على هذه العبارة، فقد تعودت كل يوم أحد، في قداس الساعة السابعة، عندما ترجع من المائدة المقدسة وعلى شعرها نقاب الزوجية، تعودت أن تحس من صميم قلبها الوفي أن أسرتها الراقدة قد بعثت من جديد منذ عهد جدتها، التي لعلها قد تركت تموت جوعاً، ومنذ أبيها وأمها القاسيين حتى زمن زوجها، ذلك الرجل العايب، چاوست الذي أخذها، ذات مساء من صيف ٤٧ بين غصون الخلدنج، فأصبحت منذ ذلك الحين مطية له مدة ثلاثين عاماً، وحتى طفلها الذي فقدته وله من العمر ثلاث سنوات. وهكذا كان إيمان سكان ضيعة قديمة مجهولة يستيقظ في هذا القلب العامر بالله، ولا تزال ماري دي لادوس تدعو لجمهرة أجدادها المجهولين أن يسكنوا في قلبها وأن يجتمعوا حول الله الذي كان دائماً موجوداً فيه. ولكن فيلستيه أردفت قائلة:

إنني جد واثقة من أن الغائبين مخطئون دائماً كما يقولون.

- أوه! نعم.

ولم تزد فيلستيه كلمة. وتركت المطبخ مرفوعة الكتفين وبدأت

تدرك أن الغائبين على حق دائماً: فهم الذين لا يمتنعون الحب أن يأخذ مجراه ويحدث أثره؛ وإذا نظرنا إلى حياتنا بدا لنا دائماً أننا مبعدون عن أحب الناس إلينا وأقربهم إلى قلوبنا. وربما كان هذا راجعاً إلى اعتقادنا بأن ملازمة الحبيب مما يضعف الحب والاعزاز. فالحاضرون هم المخطئون.

١١٢

وحل الفصل الذي تبدأ فيه البرودة المنعشة، ويتردد المرء حيال أول نار توقد كما يتردد أمام مصير مجهول. وأصبح آل كازيناڤ قبل كل وجبة ويعدها يمشون في المطبخ. فكانت فرصة لاقترب الأم من ولدها ولم يكتف فرنان بإظهار عدم الاكتراث وإنما دل حديثه على عمل خفي يجري في طيات نفسه فكان يسألها بشغف غير منتظر:

- هل كان أبي وأنت يحب أحكما الآخر؟

سؤال غريب من شخص كان فيما مضى لا يفكر في الموتى بقدر تفكيره في الأحياء؛ ولم تحر أمه جواباً؛ إذ قدرت أن كلمة الحب قد أخذت في فم ابنها معنى جديداً، عميقاً، فألح عليها قائلاً:

- هل كنت تحبين والدي قدر ماتحبينني؟

فأجابته أن «لامحل هنا للقياس»؛ فلا علاقة مطلقاً بين ما يوحى إليه الحبيب من الحاجة النهمّة إلى السيطرة الروحية؛ فكل آلام المحب ولذاته معتمدة عليه راجعة إليه، أو قل إن حياة المحب متعلقة بحياة المحبوب، وبين هذه الرابطة المعتادة أو الصحبة التي كانت بين الأرملة والراحل فقطعها الموت في زمن مبكر دون أن تذرف عليه دموعاً غزيرة. فقد مات نوما كازيناڤ وحيداً في المنزل، إذ حدث في عام وفاته أن

ذهبت فيلستيه مع فرنان لمعالجته بمياه بلدة سلي. وعلمت بحادث سقوط زوجها في الطريق ولم يبق لها في الوجود إلا إلهاً واحداً وإلاً حياً واحداً. كان كازيناف شاردأً وبصره مثقل بالنوم يشخص، بين لحظة وأخرى، الى الشبح المظلم المزدوج المائل أمام الموقد. وغسلت ماري دي لادوس الأواني في الدلو كما كانت تفعل منذ ستين عاماً. ثم رجعت، فوجدت حفيدها راقداً، فاغر الفم، مسند الرأس الى المنضدة. فتأملت: وأضاءت ابتسامة تفوق حد الوصف وجوها المنحوت من فروع البقس العميق، وجه العذراء السوداء. وحملته بين ذراعيها مع أنه كان في عمر يسمح له بالقربان الأول، وظل رأسه الجميل ثابتاً لا يتحرك، وساقاه المخدوشتان القذرتان تترجحان، وحذاؤه الحديدي يشبه حافر الحمار الصغير. حملته معها دون أن تنثني: فقد حدث وعمرها اثنا عشر عاماً وهى خادمة لأجير في إحدى القرى، أي خادمة خدم، أن كانوا يجبرونها على أن تمسك طفلاً في كل يد، ثم يربطون المولود الجديد في ظهرها النحيل: فإذا ما بكى انهالوا عليها ضرباً...

وشعرت فيلستيه أن الحبيب ينظر إليها، فشخصت إليه ولم تحظ منذ أيام بمثل لك النظرة المعذبة. وتحاملت، من فرط تأثرها، على قدمين مثقلتين، وطوقت بيديها عنق ابنها، وجذبت رأسه نحوها وقالت له:

- إنني أحظى بطفلي من جديد فهو يحنو على أمه العجوز.
آه! لو كانت تقدر، قبل أن تخاطبه بهذه اللهجة الحانية ماذا ستكون إجابته لها! إذن لانصرفت عنه ولامتنعت أن تفتح له قلبها، فلا شك أنه طعنها بضربة في صميم قلبها حين أجابها بقوله:

- إنها «هي» التي تريد أن أعاملك بالحسنى...

ثم طبع قبلة على خدها.

وانصرفت عنه، وتباعد هدير قطار البضاعة، وأحست الأم بمראה هذه الكلمة الشنعاء تشق طريقها في قرارة روحها. إنها أصبحت تدين للعدوة برحمتها. إذاً وجب أن تخضع لهذا العار. ولقد أحب ماتيلد حتى بعثها من جديد وأوهم نفسه بوجودها في نفسه وفي خارج نفسه. ومن هذا الوجود استمد هدوء لم يعهده أيام أن كان في قبضة أمه. وأمطرت السماء على الممرات المغطاة بأوراق الشجر، ولمع في الدجى حوض نحاسي صغير كأنه صفحة وجه تتقد.



في مساء اليوم التالي، جلس الابن وأمه في المكان ذاته وقال
فرنان: «نستطيع أن نشغل هذه النار في غرفة المكتب»، فأجابته
فيلستيه: «سوف يطول الشتاء قليلاً». ذلك لأنها تعودت حين كانت
فتاة عذراء، تقطن في منطقة اللاند النائية، أن تسهر في المطبخ المعطر
بعبير البلوط والينسون كما هو الحال في هذا المساء، وعلى ركبتيها
كتاب «الفرسان الثلاثة» وكانت تلقتة حديثاً، يضاء بشمعة من صمغ
الصنوبر. في هذه الساعة ساعة وجود الابن وأمه في المطبخ، استطاعت
ماري دي لادوس أن تجلس وهي تغزل. وعوت الكلاب إذ لمحت الخنازير
الوحشية تتعقب الخنازير الأليفة وتجري وراءها، وعلى المائدة غطي
الأبريق بمناشف بيضاء. وترك بعض الجيران قباقيبهم على عتبة الباب،
وتسربت معهم الى الداخل نفحة من الليل المشيع برائحة صمغ الصنوبر،
ومرت إحدى العربات تتقلب على حُفر الرمال. في هذا المساء صفر
القطار وهو يشق جوف الظلام فسمعت فيلستيه دقات صدغها، فقالت
لماري دي لادوس إنها تشعر بثقل في معدتها، وإنها أخطأت حين أكلت
ثانية من سمك الشعابين، وإنما فعلت ذلك لكي يأكل ابنها ثانية. ولا
يزال هذا السهم الذي أصابها بالأمس عالقاً بجسدها ولم تعد تتكلم بعد

الآن فرمما سببت لها كلمة ضربة أخرى. وأخذت ماري دي لادوس تسمع من حفيدها ريمون صلاة الايمان وكان يخطئ دائماً في موضع لا يتغير فتقول له:

- أعد!

- أؤمن بروح القدس وبالكنييسة المسيحية المقدسة وبقربان القديسين ويغفران الذنوب وبحياة الأبدية.

- وبعث الجسد؟ أعد!

فأعاد مسرعاً ولكنه، كالحمار الصغير، وقف عند الهدف ذاته حائراً مأخوذاً فقالت له:

- أعد!

وأعاد الكلام في ببطء ثم انطلق يتابع الكلام في عجلة حتى وقف مرة أخرى أمام «بعث الجسد» وأذناه قائمتان فقالت جدته:

- أين يسبح فكر هذا الماجن؟ أعد هذه الجملة عشرين مرة.

فأعاد الطفل وهو يضحك كأنه يلعب تلك اللعبة التي يسرع فيها

اللسان قائلاً «صلصل الجرس صلصلة»: «بعث الجسد، بعث الجسد».

فلما سكت ارتفع صوت السيد:

- بعث الجسد هو عقيدة لبعض الناس...

فنفرت ماري دي لادوس ونظرت الى سبدها على غير عاداتها كما هو الحال عند ما تثار المسائل الدينية أمامها ولكنها أطمأنت حين رآته جاداً لا يضحك. وتظاهرت فيلستيه أنها لا تفهم في أي جسد كان يفكر، وصرفته قائلة:

- ألا تعلم أننا وعدنا ماري دي لادوس أننا لن نتدخل في كل

مايتعلق بالإله...؟

وأردفت قائلة:

- ما أشد عذابي!

فلم يجيبها وهو بذرع الغرفة جيئة وذهاباً، بينما كانت ماري دي لادوس توقد الشمعة وبصحبتها الطفل. وأخيراً وقف جامداً في الركن الآخر من الغرفة فى أبعد بقعة من النار، وألصق جبينه بالزجاج الأسود، فناداته أمه وهى ضحكة ألم عميق فلم يسمعها! ولم تكن تتصور أن حبيبها في عالم بعيد عنها الى هذا الحد. ما بالها لا ترى إلا حسماً مظلماً مختلطاً بالليل؟ وأرادت أن تناديه فلم يخرج الصوت من حلقها، ما بالها لا تراه؟ لقد اختفى، تلاشى، فى ظلمات أواخر الحريف الرطبة. وأخيراً تجمعت فصاحت بعد جهاد عنيف:

- أين أنت؟

فأجابها دون أن يدير رأسه: إنه ينصت الى سقوط المطر. ثم ألصق وجهه من جديد على لوح الزجاج. وهكذا بقى زمناً طويلاً في خمول لطيف مصغياً الى صوت نقطة واحدة من المطر، تتساقط على ورقة شجرة من المانوليا كانت تلمس النافذة، فإذا ما هبت الريح تساقط المطر من الأوراق، والى صوت قطار سريع، مر ولم يقف، كأنه لمح خاطف من السرعة والمجازفة، قد أضاء فى جنح الظلام. ثم الى صوت آخر، ارتفع أخيراً، صوت غطبط ظن أنه يعرفه: فقد حدث منذ عدة أسابيع أن أمه وقعت بعد العشاء في سبات قصير كما يقع المرء في حفرة ضحلة. وأخذت تغط بصوت أجش مطرقة الرأس، فاغرة الفكين. وأراد فرنان أن يجمع شتات فكره، ولكنه ضاق بهذا الغطيط ذرعاً، وأنصت، فلاحظ أن

للغطيظ صوتاً عالياً مختنقاً على غير ماتعوده من صوتها، فالتفت وأخذ المصباح من فوق المائدة واقترب من النائمة فلم يفتن من أول وهلة: ففي وجهها الأغبر، عينان تنفتحان لا حياة فيهما ولسان يندلع بعضه من جهة الشمال. وكانت جامدة لا تتحرك، وأما الجهة الأخرى فقد كانت متشجنة عوجاء.

١٩

«لم يحدث بعد على هذا النمط» هكذا قال الطبيب وقد أخذته الدهشة من أن العجوز لاتزال على قيد الحياة. ولقد ظلت مفلوجة، لاتنبس ببنت شفة. ونقل سريرها الى مكتب الدور الأرضي حتى تمضي أيامها في المطبخ.

قالت ماري دي لادوس

- لا بد أن شخصاً أو شيئاً يشغل ذهنها؛ فإنها لاتكاد تسمع القطار حتى تنظر الى ساعة الحائط لتعرف هل في الساعة تأخير. حقاً لم تكن تعيش إلا لتنتظر فرنان: كان يدخل في الصباح حوالي الساعة الثامنة فإذا بقهوته الممزوجة بالحليب معدة له في ركن من المائدة، فيقبل جبين أمه وهي جالسة تنظر إليه وهو يأكل. وكم كان في بادئ الأمر يضيق بهذه النظرة المظلمة الدامية، أما الآن فهو لايعيرها التفاتاً. فإذا ما انقضت وجبة الظهر، وكان يتناولها وحده، جلس لحظة حيال هذه العاجزة يتصفح جريدة «جيرندة الصغيرة» ويحتال، لتغطية وجهه بالجريدة المنبسطة بينه وبين هذه النظرة الجامدة الجائحة. ولقد كانت ماري دي لادوس تقول: إنها تأكله بعينيها» فإذا ما انصرف بعد قراءة الجريدة نظرت طويلاً الى هذا الباب بعد أن يغلقه، ودلكت بيدها

السلمة صفحات ثوبها حتى أصبح له بريق من شدة البلى. فإذا حانت وجبة المساء عبر الحبيب طريقه الى المطبخ وبدأت السهرة. وما كان يستر وجهه في المساء؛ إما لأنه كان يحس بنصف حماية من الظلام، وإما لأنه رضى أخيراً أن يُعبد، والعبادة على حافة القبر. وما كانت تعيش طيلة نهارها إلا لتشبع بصرها في بدء المساء، قبل أن يعمها الظلام. وحوالي الساعة الثالثة، حلت لحظة إنقاذ المرأة الشهيدة. آه! ما أمر هذا الوجه المنبسط وهو يتدفق حباً لم تُشبّ عليه هي، بل ظفرت بحظها منه امرأة أخرى! ومع هذا فقد دفع فيلستيه كازيناف شعور خفي بأن من الخير أن تتعذب من أجل ولدها. وما كانت تدري أنها تقاسي عذاب الموت.

وقضت نحبها، في نهاية الخريف. ويحكي سكان بلدة لانجئون أنهم اضطروا أن يمسكوا بفرنان كازيناف؛ لأنه انحنى على الحفرة انحناء من يريد أن يلقي بنفسه فيها، ولم يفهم أحد أنه كان يحاول فقط أن يلمح بين أشباح القبر في الظلام شكل التابوت الذي غدت فيه ماتيلد غباراً ورماداً.

١١٥

خطر لفرنان، قبل كل شيء، أن كاتباً شرعياً سخيفاً كان وحده يصرفه عن ماتيلد. كيف يستطيع فرنان أن يجمع شتات فكره، وأن يتعمق حتى يبلغ ذكريات زاخرة حيث تسهر روح محبة الى قلبه، فغالباً ما يحضر، في كل ساعة من النهار، رجل قصير بطين، فيملي إرادته وينشر أوراقه ويسأل التوقيع؟ ذلك أن نوما كازيناث، والد فرنان، قد حرم ابنه الأكبر من الإرث لصالح زوجته. وما كان لفرنان أن يرفض هذه الوصية غير الشرعية؛ فقد كان لا يزال القانون المدني في بعض الأسر العريقة، خاضعاً لإرادة الآباء القوية. فلما بلغ فرنان سن الرشد، آثر أن يعتمد على أمه في القيام بأعباء هذا العمل، فقامت به، بطبيعة الحال، عن طيب خاطر. ومنذ ذلك الحين كان فرنان في كل شهر يأخذ منها ما يلزمه من النقود، وظل تحت سلطان أمه. وظل هذا الخضوع، الذي كان مصدر سخرية من ماتيلد، الى أن أصيبت أمه بالشلل قبيل وفاتها.

ثم قدر لفرنان، أخيراً، أن يوقع بإمضائه، فخيل إليه أن ماتحدثه موارد وأراضيه من جلبة وضوضاء قد قضت على هدوئه العذب وبطالته المقدسة حيث كان، منذ قليل، يعيش مع ماتيلد. ثم عرف كيف أن من الميسور أن يكون له حساب جار في المصرف، وأن تنبت شجرة الصنوبر

من تلقاء نفسها! وفهم أن والدته حينما كانت تركب العربى الصغيرة، فى عيد جميع القديسين لكى «نحصى الجواهر» فى مناطق الرمال كان دافعها الوحيد أن تنسى عيب الصنوبرى النابتة فى مسقط رأسها مرة فى العام، حين يعتدل الليل والنهار فتتهتز قمم الصنوبر المظلمة؟ حتى حقل الكروم سرعان ما تخلصت منه الأرملة. وكم كان زوجها يحبه ويؤثره على غيره. بينما لم تقبل أن تتخلى عن شبر من هذه الغابات الموحشة التى وُلدت فيها ونشأت على أرضها. وإن فرنان لىذكر أيام طفولته، حين قام بسفرة طويلة شاقة إلى جده بيلوير، فعبر بالعربى الصغيرة منطقة سوتيرن، تاركاً حقول العنب ونهر الجارون السعيد ووصل إلى طريق الغابة حيث رعاة البقر يقلبون الأرض بحوافرها. وكانت أمه فى ذلك العهد، تتلثم بلثام أسود معقود تحت دفنها. وأخذت مشبة العربى ذات العجلتين تهزه وتلقي برأسه إلى الوراء، فما كاد يلمح سماء أكتوبر المضطربة مناسبة بين القمم السوداء المتلاصقة، وأسراب الطير تحلق على هيئة مثلث من شاطئ يمد إلى آخر حتى طفق يصيح رعباً. فإذا ما أحدث الماء الغزير منعرجاً فى الطريق، وتكشف فجأة عن هواء بارد أسرع أمه فغطته بمعطفها، فكأنها تبسط عليه جناحاً أسود، خشية عليه من البرد. وكذلك كانت إذا اشتكى حرارة القيظ وضعت فى قلق أصبعها بين رقبتة وياقة قميصه. وحدث، فى ذات يوم عاصف، أن أزعج ذباب البقر حصان العربى، فكسر العريش فى وقت يرخى فيه الليل سدوله بسرعة. وانتظر فرنان وأمّه على حافة الطريق، بينما وقف الفلاح الحوذى يصلح العربى. وتذكر فرنان أنه شعر فى هذه الطريق الخالية التى يغمرها الأصيل بأمان سعيدة، وبدت بعيداً عن كثران الرمال العالية،

شجيرات السرخس ترتعش صفراء محترقة. ودوى صياح الراعي كالوحش، يجمع الماعز المتفرقة المختلطة في قطع الظلمات... وكان أكبر لذته أن أمه تصحبه هناك...

نظر فرنان حوله، فوجد الغرفة التي ماتت فيها ماتيلد، والإطار المصطف وهي لا تبتسم فيه، وعصفوراً يتسلق الأغصان ويشدو بصوت من الربيع، وصباحاً مقعماً بالدخان والشمس. ووجد ألا سبيل إلى مناجاة ماتيلد إلا بالصعود من أعماق حباته إلى أعلى قمة لأقرب لحظة من لحظات الماضي. وحاول أن يحن قلبه ذاكراً كم كانت حياتهما معاً قصيرة الأمد. والآن، ولا فارق في الموت بين الكنة والحماة: فعدتها القديمة قد لحقت بها في المقبرة الثالثة، الشمالية، اللاصقة بالحائط. كلتاهما أصبحتا رهينة الفناء. ولا يزال فرنان متضيقاً من أنه قضى جانباً قصيراً من حياته، من أجل زوجته، بينما الأم قد بسطت عليه جناحيها الهائلين طوال السنين الغابرة.

وارتدى ثيابه، وجاس خلال الحديقة، ونظر خلصة إلى نافذة المكتب حيث لا عجوز تضايقه، ولا وجه يتربص به. ولكن لماذا يحس بقلّة الرغبة في اللحاق بماتيلد؟ لأنه قد أمن الرقابة من جانب العجوز؟ أم أن حب أمه الهائل، الملح، كان قد أحاطه بالأسنة من النار، فما زال لهيبها يطارده حتى اتطوى على نفسه فهرب مع ماتيلد؟ ها هي ذي الشعلة قد خمدت نارها - هذا الموقد الذي كان يُشعل فيه الغضب قد غادر فرنان فجأة، فتركه ينتفض، في وسط الرماد. هنالك قوم لا يحبون إلا ليكيدوا قوماً آخرين، فإن أنين المرأة البغبضة هو الذي يدفعهم إلى حب امرأة أخرى.

والآن يقف فرنان، في ممر الجنوب، يتنسم عبير الزنبق، وينصت الى طنين زنبور ضخمة، ولم يوح إليه حاجز الحناء بما كان يوحي إليه من قبل. ونادته ماري دي لادوس للطعام، فأكل بازلاء طازجة أكثر من عادته، وجلس بمفرده في غرفة المكتب، ولا يزال فيها سرير المشلوله قائماً، فأحس، خلال عملية الهضم، بلذة عابرة، وفي ثوانٍ، تذكر «مزاجه» فعقد النية على إرسال برقية الى شارع هوجوري، وجلس الى مكتبه، وأخذ يستذكر صيغة البرقية، وكما كان يكتبها أيام أمه، ويده ترتجف غيظاً، فقد كانت خواطره لاتواتيه إلا بعد مشادة معها، وكما كانت تسخر منه، وتصيح به: «سترجع إليّ في حالة مرضية، وستنضج خلال ثلاثة أيام!» وما كان يجهل أنها تكاد تقوت من القلق لبعاده عنها، وأنها لاتذوق للعيش طعماً إلا بعودته إليها. ولولا ما كان يستولي عليه من ضيق لما فكر في مغادرتها. وكما كانت عودته مخجلة له، عذبة لديها، فيؤوب الى الحياة في جو مفعم بسرور مؤنب، وسخرية رقيقة، ورعاية فائقة! وكانت فكرة العودة من بوردو الى هذا المنزل الخالي، تخيفه فقد كان هذا الشيخ الفاني المتلاف، يخشى أن يرجع دون أن يلمح أمه لدى نزوله من القطار متكئة على الشرفة المطلة على المحطة ويدها ترتفع الى حاجبها تحاول أن تتعرف عليه بين قطيع المسافرين. تذكر فرنان هذا كله فمزق البرقية ولم يعد يفعل شيئاً، فلقد شاءت أمه ألا يعيش إلا بها، كأنه متعلق بأنفاسها. ولو لم تتحمل مناقشة ما، في عمل، أو لهو، أو أمل، لكان حسبها فخراً أن تكسب هذه النتيجة وهي في أعماق القبور. فما إن انطفأت شمس الأم حتى دارت به الأرض الفضاء، كرقعة من الأرض فقدت مدارها.

١٦

سار المتنزهون، على ندرتهم، في الطريق الممتد على طول الخط الحديدي بوردو - ست ووقفوا يراقبون من خلال الأشجار، ذلك المنزل الضخم الصامت الذي يقال عنه إن أحدا لم يعبر عتبة حتى الآن. ورأوا خلال بضعة أسابيع تالية، أن ضلف النوافذ تنفتح. فقد كان فرنان كازيناث يمضي من خلفها ليالي مؤرقة، مستلقياً على فراش ماتيلد. ولوحظ في ذات صباح، من منتصف الصيف أن الضلف ظلت مغلقة. وخدمت كل حياة في «جناح العدو» كما كانت تسميه فيلستيه، حتى إذا حل يوم الأحد انفتحت نوافذ فيلستيه كازيناث، وبعد فترة قصيرة انفتحت أيضاً نوافذ الغرفة الأخرى حيث يتعلل فيها فرنان بالنوم على سرير طفولته، ولم يكن يذوق طعم الرقاد في هذه الغرفة أو في تلك. حتى إذا حل الخريف وجاء وقت الاحتفال بعيد القديس ميخائيل أقبلت الغجريات لابسات أسماً حمراء، وعسكرن الى جانب سور الحديقة، وأوقدن ناراً ملأت ريحها الكريهة كل مكان - أوصدت الى الأبد، غرفتا فيلستيه وفرنان. وكما هو الحال في أي جسم ضخم يوشك على نهايته، كذلك كان حال المنزل، فالتجأت الحياة الى أطرافه وتركزت في المطبخ! واستعمل فرنان سرير المشلولة وكان لا يزال قائماً في الدور

الأرضي، فإذا تنفس الصبح هب يغسل وجهه غسلاً عابراً، ثم يدخل المطبخ فيجد لدى ركن المدخنة كرسيًا كانت أمه تجلس عليه، تلتهمه بعينيهما وهي في حشجة الموت.

تراكم التراب في الدور الأعلى، في غرفة ماتيلد، وأغبر زجاج الإطار المصدف حيث كانت تتوارى خلفه طلعة نضيرة لا تبتسم، وزهور الزنبق جفت من شهور ولا زالت في الأصص التي نسقها فيها فرنان فيما مضى بحرارة وإيمان. وضجت ماري دي لادوس من تراكم العمل الملقى على عاتقها، وأظهرت أنها عاجزة عن القيام به كله.

ظلت ماري دي لادوس كما كانت فيما مضى، خادمة خاضعة ترتعد فرائصها كلما وجهت بقول لأنها كانت ترى الآن بوضوح أن الصنم القديم قد تهدم ونزل من عليائه مسلماً لها. ألح عليها فرنان أن تنام في الغرفة السوداء الملحقة بالمكتب كأيام أن كانت تسهر فيها على سببتها، حتى يستطيع أن يناديها في أثناء الليل بصوته الباكي المتهدج. إنها ملاذه الأخير، فهي التي عرفت أجداده القدماء الذين أحبوا طعامها اللذيذ المطهو حسب تركيبات قديمة منسية، والذي ينشر رائحته حتى أبعد غرف المنزل، وهي التي أفنت يديها ثلاثة أجيال من آل بيلوير في شؤون الغسيل. ولكن القدر قد طارد فرنان كازيناث، وطرده، حتى في هذا الملاذ الأخير.

حلت فترة قطاف الكروم، وحل معها إلى المطبخ البط والحمام الوحشي وريمون حفيد ماري؛ إذ كان أهله يقطفون العنب في قرية إيكيم عند السيد الماركيز. وأصبح ريمون ماجناً، حسن الوجه، كثير الحركة، أشرف الأذنين، محرق الصدر، كوعاء من الفخار، عاري القدمين،

نظيفهما. إذا مشى فرقعنا على البلاط البالي، له ضحكة بتراء نُفْرَخ في عنين كحبات عنقود من العنب الأصهب. خستيت ماري في بادئ الأمر أن يكون الطفل مصدر نعب لسيدها لأنه دائم الحركة، كثير الدخول والخروج، يفتح الباب ثم يدعه ينصفق. ولكن فرنان كان يمنعها من تأنيبه، فقد كان يرنو الى هذا الشحور الصغير بمثل تلك النظرة الجائحة التي كانت أمه ترمقه بها وهي صامته، في العام الماضي. وواتته الرغبة في أن يحدثه، ولكن ما الذي يجب أن يقال لطفل؟ أخرج من كيسه عليه مستديرة فيها قطعة من الحلوى كان يحتفظ بها ضد السعال وانتظر حتى مر ريمون بجانبه، فقدم له الطعم قائلاً: «فستقة؟» فوقف الصبي لاهثاً، أحمر الوجه، وما إن مد يده ليتناولها حتى قبض عليه من ذراعيه يريد أن يستبقيه ولكن الطفل حاول أن يطير، بشعره الأطلس النافش كالريش، وهو يلفت رأسه ويشيح بوجهه ويدبذب برجليه...

فلما أيقنت من أن وجود حفيدها لايسيء الى سيدها حاولت ماري أن تستبقيه طيلة الشتاء. ولم يكتشف فرنان خطورة بقائه إلا فيما بعد. ولو كانت فيلستيه حية لما أضاعت وقتها في بحث مثل هذا الطلب. فقد كانت تعلم أن أمثال هذه الطبقة «لا يُرتبط معها بشيء» وما كانت تتردد وهي تطرد ماري الى الفرن وتصفها بالوقاحة أن تقول لابنها العزيز: «لولا ذلك ملكتني! لحسن حظك أننى على قيد الحياة! لولاى لوقعت في الشرك، فإنك عاجز لا ترى أبعد من أنفك، وما لديك من قوة الدفاع أكبر مما لدى الطفل. ولولا سهري على المنزل، وعليك لمسك الضر من كل جانب». أما الآن فهي ليست بجانبه، وما كان فرنان يقدر خطورة بقاء هذا الطفل، وعلى كل، فالذي حدث أن ماري قد رجت أهل ريمون أن

يتركوه عند السيد كازيناث، فتظاهروا بالموافقة شفقة على سيدها .
 ولم يلبث فرنان أن ضاق ذرعاً بهذا الماغن النهم، القذر، وأصبحت
 ماري لاتعنى بسيدها الهادئ عنايتها بدولاب الأطعمة أو ساعة الحائط.
 ولاحظ أن ماري دي لادوس قد تراخت في خدمتها وتهاونت في شؤون
 منزله، وأهملت ذلك الصنم الهرم المخيف، وانصرفت الى الصبي المشرق
 الذي كان من دمها. ولم يعد من اليسير أن تعد الحساء إلا بعد جلوسه
 الى المائدة، فقد كانت دبدبة قبقابه على سلم مدخل البيت مؤذنة ببدء
 ساعة الأكل. وحدث أن أصيب ريمون في ديسمبر بالتهاب خفيف في
 حلقه، فدفعها ذلك الى مغادرة الغرفة التي كانت تنام فيها قريباً من
 سيدها. ومما زاد الحالة سوءاً أن أقامت أم الطفل في المنزل بحجة علاجه.
 وكم كانت ماري دي لادوس تخشى هذه المرأة. إنها امرأة من منطقة
 اللاند، هتماء سوداء، تذكر عيناها ومنقارها بشكل دجاجة نهمة. أما
 أبوه، وكان يعمل في مزرعة قريبة ثم يعود في المساء الى منزل فرنان
 أيضاً، فهو من منطقة الجارون، فحل قوي، برز سرواله الأكرش
 المحوصل، من بنطلونه الأزرق، وعجز الحزام عن حبك جوانبه - إنه هرقل
 الذي حطمته وأعيّت قلبه سوتين القاتلة. ونقه الطفل ومع ذلك كان
 الزوجان يتخذان المطبخ في كل مساء، مقرأً لتناول الطعام، حتى اضطر
 فرنان أن يأكل في حجرة الطعام وهي قارسة البرد لايجدي فيها إيقاد
 النار ولايخفف من رطوبتها. وسمع خلال وجبته القصيرة ضحكات فظة،
 وأصواتاً كعواء الكلاب، فإذا مافتحت ماري الباب للقيام بخدمته،
 التزما الصمت، فلا يسمع إلا تمتمة لهجتهم المحلية، وصليل الملاعق
 والآنية، فإذا أوصد الباب عادوا الى الضحك والعواء.

لم يدر أحد من الأبوين بحالة فرنان وهو فى غرفته الفارسة البرد،
التي كان يبغض ألواحها الخشبية الباهتة، الزائفة، لم يكن وحيداً. فقد
كان كلما رفع بصره عن وعائه بدا له مكان أمه الذى جلست فيه زهاء
نصف قرن، مهيبة عزيزة الجانب. وكم كانت، وهي في جلال الموت، تشير
الهيبة، بوجهها المتأله العبوس، في قلب ولدها الضعيف. ماذا! ألم يئن
له أن يطرد هذه البراغيث من المنزل؟ وتذكر فرنان تلك الإلهة الرهيبة
التي عرفت بتقطيب حاجبيها أن تسيّر طوع أمرها الناس، الوسطاء،
الأجراء والخدم جميعاً. ومد الى «الوالدة» العظيمة يده متوسلاً، منهزماً
كإنياس الهرم وهو على وشك الهلاك. لقد أقر بأنه عبد تلك المرأة
الجبارة، أمه العجيبة! كيف تجاسرت مدرسة صغيرة ساخرة على أن تقف
في طريقها؟ يا ماتيلد إن شبحك جاثم على هذه المائدة بعيداً عن النار،
في وجه تيار الهواء، كأنك على قيد الحياة لم تتقدسي بعد بالموت.
هكذا تذكر فرنان ذلك الظهر المحدودب، والجسد الطليح، والعينين
الصفراوين اللتين تشبهان عيني قطرة مطاردة.

اهتز المنزل بمرور القطار السريع وحال صباح في المطبخ دون سماع
هديره فوق نهر الجارون. ومس فرنان طائف من نزوات أمه - تلك
النزوات التي جعلت العجوز الضخمة الوحشية تدب برجليها. فما إن
انفرض قائماً وتقدم نحو الباب حتى ظهرت ماري دي لادوس تحمل إناء
للبن. فحملت في وجه سيدها؛ وكانت حاذقة في رصد علامات العاصفة
على هذا الوجه؛ فقالت بصوت مختنق:

- سأذهب لأنبه هذه «المرذولة» فإنها تقلق راحة سيدي.

وعادت الى المطبخ مذعورة، وكانت هذه المرذولة تبث فيها الفزع

الذي تعود أن يوحيه الصبية الى عجائز منطقة اللاند، فوجدت موضوع النزاع أن زوج المزدولة قد سلب منها مالها القليل الذي اقتصدته تدريجياً، وأخذ يتهمها بأنها لاتزال تخفي نقوداً. ولم تمض بضعة ثوان حتى كان فرنان يسمع صوت ماري العجوز وحدها تتحدث. ثم نبحت المزدولة فجأة بلهجة المنطقة. وليس أدل على العزلة الشاذة التي يعيش فيها فرنان كازيناث من جهله بهذه اللهجة. ولما ألصق أذنيه بالباب فهم أن ماري كانت تتحدى أولادها. ولكن ماذا يطلبون من العجوز؟ سمع كلمة «سيدي» تتردد كثيراً في أحاديثهم، فمن الجائز أن يكون هو موضوع المشادة. ولما كان فرنان رديء السمع ترك غرفة الطعام وممر بالدهليز، فأيقظ وقع خطاه صدى في غرفة فسيحة، تنتهي بأبواب خالية من الضلف، وتقسم رحبة طويلة الى رقعتين مضيئتين في ليلة قارسة البرد. ثم أعاده الممشى الى باب هذا المطبخ الواقع أمام السلم الكبير. فسمع هذه المرة وهو يرتعد في الظلام كلمة «الماجن» علاوة على كلمة «سيدي» التي كانت ترددها، وسمع ماري تصيح بلغة واضحة: «ولكني أخبركم أنه لم يسأل مرة واحدة عن أخبار هذا الماجن، وأنا أدري بسيدي، فهو لا يتعب نفسه في سبيل الماجن! كان الصبي سلوته بضعة أيام، أما الآن فإنه لم يعد يقبله، وعلى كل فلا يمكن أن يفرض عليه...» فقاطعتها المزدولة عاوية: «نعم! إن في إمكانك أن تفرضي عليه ما تريد. لن يستطيع هذا الشيخ الفاني أن يعيش بدونك، ولكنك لاتحبين أسرتك...» واستأنفتا نباحهما بلهجة قروية.

نفذ فرنان قامته العالية، واحس بأمه تحته الى الأمام، لأنها كانت في صميم نفسه، كانت تملكه. ماذا ينتظر؟ لم لا يدفع باب الغرفة دون

استئذان، ويحطم هذه المائدة بضربة من قدميه؟ ولكن قدميه نخونانه وقلبه تختل ضرباته. «فالنوم قبل كل شيء...» وارتمى على صندوق الخشب المغلق بعض الإغلاق، فقرقع الغطاء وقاطع الصوت المدوي الصادر من وراء الباب، فنهض وذهب الى المكتب حيث كانت النار قد خمدت. وأخيراً، بعد أن استلقى وأطفأ شمعته، لاحظ أن ماري أهملت إغلاق الضلف، فرأى من سريره صفاء الليل، وقد ظل الجو ممطراً طيلة النهار فباتت الأشجار تنقط في هدوء رائع، فلم يكن في الكون إلا صوت هذه الدموع الساكنة. فسرى إليه هدوء وروحانية، كما أنه أحس بأن من وراء حياته القاسية، من وراء جفافه الروحي، سلطة من الحب والسكون، حيث تستحيل أمه امرأة تختلف عن التي استولت عليه كالشيطانة، وحيث تشخص إليه ماتيلد بوجه منبسطة هادئ الى الأبد بابتسامة قديسة.

وما إن طلع النهار، وأيقظه انهمار المطر، وقلب بصره في هذا الصباح الحالك، صباح الشتاء حتى ثار بغضه، ونأى عن ذهنه ما كان غمره من إحساس الليل الجميل بتلك السعادة المجهولة، وتصادت فيه بواعث بغضائه مثل مد البحر على هذا الصباح الكئيب. فطوى في ملاءته جسمه الفاني المتألم، وخيل إليه أن النهار أمام عينيه، كطريق رملية قفرة بين أشجار الصنوبر المتقدمة، فأغمض عينيه ليتغلب على الزمن ويقفو بلا شعور أثر هذا الغذاء الروحي. ولكن ماري دي لادوس أوقدت النار، ووضعت فوق وسادته القهوة الساخنة المزوجة باللبن، وهو يتظاهر بالنوم ووجهه لصق الحائط.



بعد الغداء، جلس فرنان في المطبخ أمام النار. وما كان أشد فزعاً، وهو متجمع في مقعده، في جو ديسمبر القاتم، حين تذكر أمه وهي في لحظة الموت! دخلت ماري دي لادوس وهي تعين حفيدها الضعيف على المشي، وقد كان يومئذ ينهض من نومه للمرة الأولى، ونظرت في السيد تحاول أن تكشف عن قلبه، ولكنه لم يرفع بصره عن اللهب، ودفعت إليه الماكن وهي تقول له:

- ماذا تقول لسيدي؟

فلم يلتفت إليها فرنان، فأعادت عليه:

- لقد تعذب المسكين، وأصبح غاية في النحافة وابتلعت عيناه

وجهه.

وتحسست ذراع الولد، وأخذ السيد الملقط ثم وضعه لأن يديه كانتا ترتعشان، ثم قذف الصبي الماكن بنظرة قارسة. وتذكر كلمتين مألوفتين بلهجة القرويين، رغم جهله بها، كان يحفظهما عن جده بيلوير وأمّه فيلستيه حين كانا يريدان أن يبعدا شخصاً أو حيواناً من أمامهما:

- اذهب من هنا.

وقام ينتفض، كما كانت تفعل أمه. إلا أن أمه كانت أصلب عوداً

وأشد هيبية. فتراجعت ماري بخضوع رهيب، وأخذت معها الصبي الماخن
الأشعث وهو يقفز كشحرور سقيم.

ولبث فرنان حتى المساء أمام مدخنة غرفة المكتب. وفي الساعة
الرابعة أحضرت ماري المصباح، وأغلقت الضلف، وبقي وحيداً حتى دله
الصباح على أن أم ريمون في المطبخ - حينئذ جلس في الدهليز المظلم
على صندوق الخشب كما فعل أمس ولم يتحرك، وسمع ماري تقول في
أسلوب الرجاء: «لا. لا سوف يسبب له ذلك ضربة دامية...» ثم طغت
لهجة المزدولة على صوت الأم. وصاحت بأنها ستقوم بنفسها لوضع آنية
الطعام على المائدة، ولم يفهم فرنان معنى هذا التهديد. وأحس بالبرد
فعاد الى غرفة مكتبه، وظل شاخصاً الى النار لا يتحرك. وعند الساعة
السابعة حضرت ماري دي لادوس لتخبر سيدها أن كل شيء قد أعد.
فأخذت المصباح ورفعته كما كانت تفعل كل مساء، وانسحبت من أمام
سيدها وهو يبصر في ضوءه وجهها الهرم المتهدم. وقام فاخرق المطبخ
ودفع باب غرفة الطعام ونظر ففهم كل شيء. كانت أمام آنية طعامه
آنية أخرى موضوعة على الغطاء النظيف. ولما كانت المائدة جد مرتفعة
على الصبي الماخن، فقد وضعت المزدولة كوماً من الكتب على الكرسي
حتى يتمكن ريمون في جلسة مريحة من أن يدرك الحساء على المائدة.

كان الطفل يبكي من خلف الباب، ولم يجرؤ على الدخول بالرغم من
أوامر أمه التي بدأت ترفع صوتها. وأحس فرنان كازيناث أن موجة من
الغضب تنبعث في نفسه وتشتد، وتسربت روح أمه في نفسه، وغزته،
واستولت عليه، وتناول قحداً من زبيب فشربه دفعة واحدة، ثم ضرب
بيده فتحطمت على البلاط آنية الطعام المخصصة للولد، وعم المطبخ
سكون رهيب، ودخل السيد فرأى المزدولة في مقدمة الغرفة ذات عينين
كعيون الطير، ومن خلفها ماري دي لادوس ترفع يديها المعقودتين.

وتذكر كازيناف مرة أخرى اللهجة الريفية التي كانت تستعملها أمه
عندما كانت تود أن تطرد من أمامها إنساناً أو حيواناً فقال:

- اخرجوا من هنا!

فتقدمت المزدولة واحتجت بأن سيدها هو الذي أراد أن يستبقي
الصبي الماجن، وبذلك قد ضيَّع عليه فرصة طيبة، وسيدها كان معروفاً
دائماً بعنايته به وحرصه على بقاءه... فتعلق به الصبي وتعوده...
وسكتت وهي تنتفض، والسيد صامت يحدجها بنظرة قارسة، ثم أعاد
عليها قوله:

- اخرجوا من هنا!

فشارت المزدولة وصاحت بأنهم لن يغادروا المنزل إلا بصحبة المرأة
العجوز. أما ماري دي لادوس فوقفت صامتة، وأشاحت بوجهها بعيداً
وهي تخفيه بيديها ذات الأوردة المنتفخة. وانفتح باب المخزن المجاور،
وبرز الصبي بوجه كوجه الثعلب الصغير المصيد في جحره، وأيقنت
المزدولة أنها تغلبت على خصمها بهذا التهديد، وابتسمت بسمة الفوز،
فكشفت عن لثة صلبة وثغر قائم. مما جعل فرنان يتمزق من الغضب
ويستسلم الى شيطان أمه. وبحث أصابعه بحركة مرتعشة عجلية، في
حافضة نقوده، عن ورقة من فئة مائة فرنك وقذفها الى ماري دي لادوس
فالتقطتها بنتها، ثم فتح الباب، وقال للخادمة بصوت هادئ:

- غداً تعودين لتأخذي حقبيتك.

فنظرت إليه، وتذكرت سادتها الموتى حين كانوا يطردونها ووقفت

لاتنصرف، فأعاد عليها الكلمة بصوت پبلوير:

- اخرجي من هنا!

وكان شامخ الرأس، منتفخ الرقبة، نموذجاً من أمه وهي نابضة
بالحياة.



سمع فرنان كازيناف وقع قباقيبههم في الشارع على طوال خط بوردو - ست، فملاً قدحه، ثم أفرغه وترك الغرفة. وهدر القطار الأخير على النهر، ولم يرتجف المنزل. ومشت سحب رقيقة تخفي تحتها قمرا كان يضيء - على خفائه - نوراً على الكون. ووقف فرنان كازيناف، بلا مصباح، في وسط الدهليز يرى هيئته في المرآة القريبة من الباب. وساد حوله سكون أعمق من سكون الأمسيات الغابرة. وهو لا يذكر أن ماري دي لادوس قد أقلقته أنفاسها حين كانت تسهر سهراتها الماضية، بينما كانت أنفاس نائم واحد، في حجرة نائية، تعكّر صفو المنزل، وموجة ضئيلة من الحرارة الإنسانية تسبب خفقان القلوب. إذن لقد عرف فرنان لذة السكون للمرة الأولى. فكان ينصت الى المطر - كما كان في اليوم السابق - وهو يتساقط من الأغصان، وليس من شيء حول المنزل الهامد إلا هذه الدموع النائحة الهادئة، التي لعلها جعلته يحس بهذه اللحظة، لحظة الهدوء القريب من عالم الحب والسكون الذي تعيش فيه أمه الحقيقية - أما أمه التي ألهمته أن يطرد خادمة عجوزة مطيعة - فهي امرأة أخرى لاتزال نابضة بالحياة، في مكان آخر، يستمد منها، في هذا المساء هدوء خالياً من كل غضب، وعزوفاً عن كل ضيق، وعزلة سحرية.

إنه يعتقد أن هذا كله قد صدر عنها، ولم يدرك أنه قد شرب نبيذاً، وأن أقل سكرة كافية لإرساله الى الحياة الأبدية. وأخيراً صحا من هذا الذهول على قشعريرة البرد، واصطكك أسنانه التي تحكي مافعلته ماتيلد في ساعة الاحتضار. حينئذ سار في الممشى المؤدي الى «جناح العدو»، وتنقل من غرفة الى أخرى وهو ينتفض، حتى بلغ غرفة أضيئت بنور القمر النافذ من خلال الضلف، وقد ألقى على الإطار المصدف قبساً منه، ورسم على الحائط ظلاً أنيقاً لزنبقة ذابلة. وفي أعلى السلم، انفتح باب المخزن ودخل فرنان. وكان هذا الباب، فوق الردهة، يصل بين جناحين، ووجد كوة تجمع أضواء الليل الصافية كما يتجمع الماء، ثم تفرقه على صندوق مزخرف بزهور الخرامى المرسومة. ومشى فرنان يتعثر في أشياء ميتة حتى فتح باب غرفة صغيرة، كانت ماري دي لادوس تنام فيها قبل أن تقوم بالسهر على سيدتها؛ وفي هذه الغرفة، كانت ماري تواظب كل صباح على أن تعمل زينتها، وفيها وضعت كل ماملكه في الوجود في صندوق من الخشب الأسود، وفيها برد قارس يبعث رائحة الصابون، وثياب من يدأبون عادة على العمل لغيرهم من الناس. وفيها كوة أضيقت من كوة المخزن، تجمع صفاء الليل على تثال من الجص للعدراء وهي تبسط يديها. وتركت على سريرها، في ظلام الليل، صليبها المنقوش عليه جسد المسيح، هذا السرير المغطى بملاءة عتيقة مصورة، وهي القطعة الثمينة والثروة الوحيدة لهذه الغرفة. وكانت ماري دي لادوس كلما قيل لها إن القطعة غالية القيمة، طرحتها جانباً. وعلى هذه الملاءة جلس فرنان، وانهمرت دموعه وقد طأطأ رأسه، وكوعه مرتفق على ركبتيه، ووجهه بين يديه، والبرد يُثلج الدمع على خديه، وجسمه يقشعر خوفاً

وفرقاً. وأوجس خيفة من أن يموت وحيداً في الغرفة، فخرج من المخزن
 يترنح، وتشبث بسياج السلم حتى بلغ غرفته واستلقى على فراشه.
 ولم يذق فرنان طعم النوم، وشعر يشغل لا حد له على صدره
 وأنامله. وتراءى له، في حلم، أن شخصاً يسير في الحديقة. ولكن پليو
 لم يكذب يشهد نباحه حتى هدأ فجأة. وخطر لفرنان أنه نسي أن يغلق
 الباب بالملزاج، فقد سمع الباب الكبير ينفتح بدفع خفيف، ولكن لم
 يتطرق إليه خوف ما، وإذا بوقع خطوات من جهة المطبخ، تتباعد شيئاً
 فشبهاً، وضوء ينفذ الى أرض غرفته. فأغلق عينيه ثم فتحهما، فإذا
 بباري دي لادوس تمسك بمصباح فتلقي نوراً على وجه العذراء السمراء.
 ولكنها لم تتقدم خطوة، وانتظرت حتى يناديها:

- ياماري!

حينئذ أتت إليه بعد أن وضعت مصباحها، وأحس بيدها البالية تمر
 على جبهته.

جوهانية. سان سامفوريان

في ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٢٣

نوبل ۱۹۵۲



Abstract

Bibliotheca Alexandrina



0358894